

سُورَةُ الْمُرْمَلِ

حِينَ يُهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ
رَحْلَةً مِنْ دَفْءِ الْمُرْمَلِ إِلَى ثِقَلِ الْقَوْلِ،
وَمَنْ سَكُونِ اللَّيْلِ إِلَى سَبْحِ النَّهَارِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

حين يَهَيُّ اللهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

رحلةٌ من دفءِ المزمّل إلى ثِقَلِ القول، ومن سكّون الليل إلى سَبْحِ النهار

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيّ

مقدمة منهجية

السورة التي تبدأ بالغطاء لتكشف الإنسان

ثمّة سورٌ تقرؤها فتشعر أنها تحدّثك عن طريق. وثمة سورٌ تشعر معها أن الطريق نفسه دخل إلى قلبك، وأخذ يعيد ترتيبك من الداخل.

وسورة المزمّل من هذا الضرب العجيب. فهي لا تبدأ من الخارج؛ حيث الناس والخصومات والوقائع. ولا تبدأ من ساحات المجادلة أو من صخب الدعوة. بل تدخل إلى ذلك الموضع الخفي الذي لا يراه أحد: حيث الإنسان وحده، وثوبه حوله، والليل ساكن، والأرض قد خفتت أصواتها.

ثم يأتيه النداء من فوق السماوات: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾.

وكأن السورة، منذ كلماتها الأولى، تريد أن تقول إن أعظم التحولات لا تبدأ دائماً في الميادين، بل في الغرف المغلقة. وإن الرجل الذي سيواجه عالماً كاملاً لا بد أن يُبنى أولاً حيث لا يصفق له أحد، ولا يسمع قيامه أحد، ولا يرى دموعه أحد.

فإذا أراد الله لعبده أن يحمل شيئاً ثقیلاً أمام الناس، أعدّ قلبه له في ساعات الخلوة.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ومن هنا لا أتعامل مع سورة المزمّل بوصفها سورةً في فضل قيام الليل فحسب، وإن كان قيام الليل في قلبها. ولا أراها توجيهاتٍ عبادية منفصلة يمكن اقتطاع كل واحدة منها عن الأخرى.

إنما أراها بناءً متكاملًا للإنسان الرسالة. تبدأ بإخراجه من الدفء إلى القيام، ثم تعلّمه كيف يرتل، ثم تكشف له لماذا يحتاج كل ذلك: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

بعد ذلك تمُدُّ له جسور القوة: الليل، والذكر، والتبتل، والتوكل، والصبر، والهجر الجميل. ثم تفتح أمامه نافذة الآخرة، حتى لا يستبد به ضجيج المكذّبين. وتختّم برحمةٍ واسعة.

فالله الذي أمر بالقيام هو نفسه الذي يعلم ضعف الأجساد، وتقلب الأحوال، ويقدر الليل والنهار، ويقبل من عباده ما تيسّر.

السورة ليست تكليفيًا يضغط الإنسان حتى ينكسر. إنها تربيةٌ ترفعه حتى يستطيع أن يحمل، ثم رحمةٌ تعرف حدوده حتى لا يهلك تحت ما يحمل.

وسيكون منهج هذه الرحلة قائمًا على الإنصات إلى الآية في موقعها من السورة، لا على انتزاعها من سياقها.

فكلمةٌ مثل ﴿قُمْ﴾ لا تُفهم حق فهمها إلا بعد ﴿الْمَزْمَلِ﴾. و﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ لا يستبين أثرها إلا إذا رأينا كيف سبقتها تربية الليل. و﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ لا يكشف عمقه إلا إذا قورن بسكون المناجاة.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُبْعَثُ اللهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

أما ﴿وَأَصْبِرْ﴾ فلا ينبغي أن تُقرأ باعتبارها وصيةً أخلاقيةً مجردة. إنها ثمرةٌ من ثمار قلبٍ قام طويلاً بين يدي الله، حتى صار أوسع من أذى البشر.

سنحاول في كل آية أن نبدأ من دلالتها القريبة وسياقها البياني. ثم نترك معناها يمتد في النفس، ما دام امتداده لا يصادم ظاهر القرآن، ولا يدّعي عن الله ما لم يقله سبحانه. فالتدبر ليس إطلاق الخيال من كل قيد. إنه أن تظل واقفاً تحت نور النص، حتى ترى من معانيه ما لم تره من قبل.

وسنحذر في هذا الكتاب من تحويل التجربة النبوية إلى صورة نفسية مبتورة عن مقام الوحي. فمحمد ﷺ عبدٌ اختاره الله لرسالته، ورباه على عينه، وهبأه لما سيحمل. وما تتأمله في هذه الآيات إنما هو من آثار هذا الخطاب وهداياته لنا، لا مساواةً بين مقام النبوة ومقامات سائر الناس.

غير أن القرآن حين يخاطب النبي ﷺ يفتح للأمة، من وراء ذلك، أبواب التربية. فالقلب البشري، مهما اختلف مقام صاحبه، يحتاج إلى أصلٍ لا يتغير:

أن يستمد من الله قبل أن يستهلكه العالم. وأن يخلو قبل أن يختلط. وأن يسمع كلام الله قبل أن يسمع كلام الناس. وأن يعرف من وكيله قبل أن يدخل معارك النهار.

وسورة المزمل، بهذا المعنى، تعيد تعريف القوة.

القوة هنا ليست صخباً، ولا سرعةً في الرد، ولا قدرةً على الانتصار في كل جدل. إنها أن يكون في باطن الإنسان موضعٌ لا تصل إليه أيدي العالم.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

موضعٌ امتلاءً بالله، فلا تفرغه الخسومة. وسكن إلى الوحي، فلا تنزله الأصوات. وعرف الآخرة، فلا تخيفه خسائر الطريق.

إن الإنسان ينهار غالباً لا لأن الحمل أكبر من عضلاته، بل لأن داخله لم يُعدَّ للحمل.

ولذلك لم يقل الله لنبيه في مطلع هذا الطريق: اخرج إلى الناس. وإنما قال له أولاً: ﴿قُمْ
الَّيْلَ﴾.

في الظاهر هو قيام جسده. وفي العمق هو قيام إنسان بكامله من حالٍ إلى حال.

ولهذا سيكون الليل في صفحات هذا الكتاب أكثر من زمن. وسيكون الترتيل أكثر من أداء صوتي. والتبتل أكثر من عزلة. والتوكل أكثر من كلمة. والصبر أكثر من احتمال. والهجر الجميل أكثر من ابتعاد.

هذه جميعاً أجزاء هندسة روحية واحدة. أراد بها الوحي أن يصنع إنساناً يستطيع أن يمضي في عالم مضطرب، دون أن يحمل اضطرابه في قلبه.

وليس المقصود أن نهرب من الحياة إلى محراب. بل أن نخرج من المحراب إلى الحياة بقلبٍ لا تبتله الحياة.

فالنهار في السورة طويل. والعمل ممتد. والصراع موجود. والمكذبون حاضرون.

لكن الذي يختلف هو أن العبد لا يدخل كل ذلك فارغاً. إنه يدخل النهار بعدما أخذ من الليل زاده.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وما أجمل أن نقرأ السورة اليوم في عصرٍ أنك الإنسان فيه بكثرة الحضور وقلة الخلوة، وفيض الكلام وندرة الإنصات.

بات يعرف أخبار العالم قبل أن يعرف أخبار قلبه. ويستيقظ على أصوات البشر وينام عليها. حتى صار الصمت عنده فراغاً، والخلوة وحشةً، والقيام مشقةً لا يفهم سرها.

تأتي سورة المزمّل لتقول له إن بعض ما تظنه انسحاباً هو في الحقيقة إعداد. وإن بعض العزلة ليست فراراً من العالم، بل نجاةً من أن يستولي العالم على قلبك.

إنك تحتاج إلى ساعةٍ تنفض فيها عن روحك غبار الوجوه والأحداث والكلمات. ساعةٍ تعود فيها لتعرف لمن أنت، وإلى أين تسير، وبأي نور ستقطع الطريق.

ولن ندخل إلى هذه السورة دخول من يريد استخراج مواعظ متناثرة. بل دخول من يريد أن يرى البناء.

فجماها الأعظم في هذا الترتيب البديع: مزمّلٌ في أول الطريق، قائمٌ في الليل، مرتلٌ للوحي، مهياً للقول الثقيل، مستندٌ إلى ربه، صابرٌ على الأذى، معرضٌ بإحسان، مستحضرٌ للآخرة، ثم عبدٌ تخفف عنه الرحمة في خاتمة السورة، ولا ينقطع عن الصلة بالقرآن.

إنها قصة الانتقال من الاحتماء بالشوب إلى الاحتماء بالله. ومن سكون الجسد إلى يقظة الروح. ومن الخلوة بالله إلى الثبات أمام الناس.

هذه إذن ليست صفحاتٍ في الليل وحده. إنها صفحاتٌ في صناعة الإنسان الذي لا يبتلعه النهار.

الفصل الأول

حين يأتي النداء إلى الإنسان وهو متزمل

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴿٤﴾ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٥﴾﴾

من أعجب ما يستوقف القلب في مفتتح السورة أن النداء الإلهي لم يبدأ باسم يدل على الرسالة، ولا بوصفٍ من أوصاف القيادة.

جاء إلى النبي ﷺ وهو في هيئة المتزمل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ﴾.

تبدو المسافة بين حال التزمل والتكليف الآتي بعدها قصيرة في اللفظ، عميقة في المعنى.

فالإنسان حين يتزمل بثوبه يطلب عادةً شيئاً من الدفء والسكون والانكفاء. ثم يجيء الأمر بعد ذلك مباشرة: ﴿قُمْ﴾.

وبين التزمل والقيام تكاد تختصر قصة كل تكليف.

فما من رسالة جادة إلا وفي أولها شيء تحبه النفس، ثم تدعى إلى مفارقتها. وما من نهوض حقيقي إلا وله ثوبٌ ينبغي أن يُلقى، وراحةٌ ينبغي أن تُوجَل، ومألوفٌ ينبغي أن يتسع حتى يستقبل أمراً أكبر منه.

وليس في النداء جفاء. بل فيه من الأنس ما يجعل الأمر أثقل وأحب في الوقت نفسه.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

إن الله سبحانه ينادي عبده في الحال التي هو عليها. ولا ينتظر منه أن يتحول أولاً حتى يخاطبه.

وكأن في ذلك معنى رقيقاً: تبدأ التربية من موضعك، لكن لا يراد لك أن تبقى فيه.

وهذه سنة جلييلة في إصلاح النفس. فالله يعلم حال العبد، ويخاطبه من داخل واقعه، ثم يأخذ بيده إلى ما وراءه.

وما أكثر الذين يظنون أن عليهم أن يصبحوا كاملين أولاً حتى يبدؤوا السير إلى الله. بينما الوحي يريك أن النداء قد يأتيك وأنت ملتفت بثوب ضعفك.

ثم يكون أول ما يصنعه بك أن يقول: قم.

وهذه الـ﴿قُمْ﴾ ليست مجرد حركة عضلية من اضطجاع إلى وقوف. إنها الكلمة التي سترافق الرسالة كلها.

قم من راحة الجسد إلى يقظة القلب. قم من حدود الذات إلى همّ الأمة. قم من دائرة المألوف إلى أفق التكليف.

قم؛ لأن ثمة قولاً سيأتيك، لا يليق به قلبٌ مستغرق في النوم.

وإذا كان القرآن قد ابتدأ في سورة العلق بـ﴿اقْرَأْ﴾، فإن المزمّل تأتي بـ﴿قُمْ﴾.

وكأن الوحي يبني الإنسان بالمعرفة والحركة معاً: قراءة تستنير بها البصيرة، وقيامٌ يتهيأ به الكيان لحمل ما عرف.

لكن إلى أين يكون هذا القيام؟

لم يقل: قم إلى الناس. ولم يقل: قم إلى المواجهة. بل قال: ﴿قُمْ اللَّيْلَ﴾.

وهنا يكشف القرآن قانوناً عميقاً من قوانين التربية:

قبل أن تتقف طويلاً أمام الناس، قف طويلاً أمام الله. وقبل أن تتلقى طعناتهم، تلقّ من القرآن ما يجعل قلبك أوسع منها. وقبل أن تدخل ازدحام الأصوات، ادخل صمت الليل حتى تعرف صوت الحق في داخلك.

فالليل ليس مهرباً من مسؤولية النهار. إنه مصنع القدرة عليها.

ومن يقرأ السورة كلها يرى ذلك بوضوح؛ إذ سيأتي بعد قليل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

فكأن ليل وظيفَةً والنهار وظيفَةٌ. والإنسان لا يُحسن السبح في النهار إذا لم يرسُ قلبه في الليل.

إن قيام الليل في هذا السياق ليس نافلةً زائدةً على الحياة. بل هو، في بناء حامل الوحي، جزءٌ من بنيته.

ثمّة أحوال لا تستطيع النفس أن تحملها بقوة الإرادة وحدها. فالإرادة نفسها تُستنزف، والعقل يتعب، والحماسة تهبط، وأصوات الناس تنفذ إلى مواضع خفية من الروح.

لذلك لا بد للإنسان من موردٍ آخر، لا ينضب بنضوب طاقته البشرية.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

في الليل ينقطع مؤقتاً عن دائرة الأخذ من العالم، ليأخذ من ربه. ويخرج من سوق المطالب المتبادلة إلى مقام العبودية المحضة.

لا يريد من الناس شيئاً، ولا يريد الناس منه شيئاً. إنما هو بين يدي من خلقه.

وهذه اللحظات تعيد توزيع أثقال الدنيا في داخله. فما كان ضخماً أمام الناس يصغر أمام الله. وما كان مخيفاً في النهار يفقد كثيراً من سلطانه حين يراه القلب من نافذة الآخرة.

ثم لا يتركه القرآن مع أمرٍ مجمل قد يحمل النفس على اندفاع لا يدوم. بل يقول: ﴿إِلَّا قَلِيلًا نَّصَفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ﴿١٠٠﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴿١٠١﴾.

وفي هذا التقدير إشارة إلى أن العبادة العميقة ليست فوراً عاطفياً بلا ميزان. إنها بناءٌ له قدره وإيقاعه.

فالإنسان يحتاج إلى المجاهدة، لكنه يحتاج كذلك إلى انتظام. وما يُبنى ليومٍ واحد قد تصنعه الحماسة. أما ما يُراد له أن يصنع قلباً، فلا بد أن يدخل في هندسة الوقت.

القرآن هنا يربط أعظم أشواق الروح بالحساب: نصف الليل، أو النقص منه، أو الزيادة عليه.

إن الروحانية القرآنية ليست ضباباً عاطفياً يكره التحديد. إنها عبوديةٌ تعرف المقادير.

صلاةٌ لها وقت. وزكاةٌ لها نصاب. وصيامٌ له شهر. وقيامٌ له قدر.

فكأن من تمام الإخلاص أن يتعلم الشوق النظام.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ويمكن للقلب أن يرى وراء هذه المقادير رحمةً أخرى.

فالله الذي دعا إلى القيام لم يطلب أن ينقلب الليل كله عبادةً بلا نوم، وإنما أبقى للضعف الإنساني موضعاً داخل التكليف.

ليست غاية العبادة أن تسحق الطبيعة البشرية، بل أن تهذبها وتعلمها إلى كمالها الممكن. ولذلك كان في التعبير انتقال بين النصف والنقص والزيادة، حتى يكاد السامع يشعر بحركة الميزان.

وهذه التربية نفسها ستبلغ تمامها في آخر السورة حين يأتي التخفيف الصريح. عندها يتبين أن الشريعة التي تربي بالعزم هي نفسها التي تحتضن بالرحمة.

الله لا يريد أن يريح من عبده لحظة حماسة ويخسره بعد ذلك. بل يريد منه سيراً يصل به.

ثم تأتي الجملة التي تكشف ما ينبغي أن يملأ هذا الليل: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾.

ليست القضية سهراً مجرداً، ولا طول وقوف فحسب. فني قلب الليل قرآن.

وهذا الترتيب بالغ الدلالة: قم، ثم اقرأ بتمهل وتبين وحضور.

كأن القرآن لا يريد للعبد أن يمر به مرور المستعجل. فالكلام الذي سيحمل به العالم لا ينبغي أن يمر أولاً على قلبه عبوراً عابراً.

الترتيل هو أن تمنح الكلمة حقها من الزمن. حتى لا تسبق العين القلب، ولا اللسان الوعي، ولا آخر الآية أولها.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وفي عالمٍ يَجِدُ السرعةَ، تبدو هذه الكلمة مدرسةً كاملة:

بعض الحقائق لا تفتح أبوابها للمسرعين.

والمتحير أن الأمر لم يقل فقط: اقرأ القرآن، بل ﴿رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

جاء المصدر مؤكِّداً الهيئَةَ، وكأن المراد ألا تكون القراءة مهمةً تُنجز، بل مقاماً يُعاش.

إن القرآن لا يريد منك في لحظات التكوين أن تستهلك أكبر عدد من الصفحات. بل يريد أن تسمح للآية بأن تعمل فيك.

قد تقرَّ آيةً واحدةً، فيصنع الله بها فيك ما لا تصنعه صفحات مررت بها وقلبك خلفك.

فالقرآن ليس مادةً معلوماتيةً يزداد بها مخزون الذهن فحسب. إنه خطابٌ يريد إعادة تكوين النظر والإرادة والموازن.

ولعل هنا واحداً من أسرار ارتباط الترتيل بالليل.

فالنهار يجزئ الإنسان، والليل يجمعه.

في النهار عينك على أكثر من شيء. وأذنك يطاردها أكثر من صوت. وعقلك موزعٌ بين حاجةٍ وموعدٍ وواجبٍ وخبر.

أما الليل فيعيدك إلى وحدتك الأولى. ولذلك كان أصلح للقول الذي يريد أن يدخل عميقاً.

ليس معنى ذلك أن القرآن لا يُتدبر في النهار. المعنى أن ثمة صفاءً خاصاً حين يقل نداء العالم، فيقوى سماع القلب.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُبَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ما أكثر الكلمات التي نعرف معناها في الضوء، ولا نعرف وزنها إلا في الظلمة. وما أكثر الآيات التي تمر بنا في الزحام فنعرفها، ثم نسمعها ليلاً فكأننا لم نسمعها من قبل.

وعندما يجتمع القيام والترتيل، يبدأ القرآن ببناء شيء لا يراه الناس.

قد يستيقظ العالم في الصباح، فلا يرى في صاحبه تبدلاً ظاهرياً هائلاً. لكنه لا يعلم أن قلباً كان يُعاد تشكيله في الليل.

خوفٌ نقص. ويقينٌ ازداد. وتعلقٌ سقط. وآخرةٌ اقتربت. ودنيا انكشفت. وكلمةٌ من كلام الله وجدت موضعاً جديداً في الروح.

وهكذا تصنع العبادات الكبرى فعلها الحقيقي: بهدوء.

فالجبال لا تسمع صوت الجذور وهي تشق الأرض. ومع ذلك فإن الجذر الصامت هو الذي يمنع الشجرة من السقوط حين تأتي العاصفة.

وهنا تظهر المسافة الهائلة بين من يريد أثراً بلا إعداد، ومن يفهم منهج السورة.

نحن كثيراً ما نحب الثمرة المرئية: كلمةٌ قوية، موقفٌ ثابت، صبرٌ عجيب، قدرةٌ على مواجهة الباطل.

ونغفل عن الجذور غير المرئية التي صنعت ذلك كله.

نقرأ في سير الصالحين عن الثبات، ونسى الساعات التي سبقت الثبات. ونعجب بالشجاعة في العلن، ولا نرى الانكسار لله في السر.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

نريد ألا يهزمنا كلام الناس، ونحن لم ندرّب قلوبنا طويلاً على سماع كلام الله.

سورة المزمل تردنا إلى أصل المعادلة:

ليس الثبات يوم العاصفة قراراً يُتخذ في اللحظة نفسها. إنه رصيدٌ قديم من الليالي.

ولذلك فإن عبارة ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ يمكن أن تُقرأ في أعماق النفس بوصفها دعوةً لمقاومة الاستهلاك الدائم.

الإنسان الذي يعيش كله خارج نفسه، بين الأعمال والناس والأخبار والتوقعات، ينفد ولو كان قوياً.

فالروح إذا لم يكن لها زمنٌ تعود فيه إلى أصلها، تتحول ببطء إلى آلة استجابة.

يقول الناس فتغضب. يمدحون فتفرح. يخذلون فتحزن. يهاجمون فتندفع.

حتى تصير حياتك كلها ردود أفعال.

الليل يعيد إليك مركزك.

هناك لا خصم تجيبه، ولا جمهور تقنعه، ولا صورة تحافظ عليها، ولا مكانة تدافع عنها. إنما أنت عبدٌ فقط.

وتلك من أصفى صور الحرية.

وليس من المصادفة أن أول مدرسة لإعداد الرسالة كانت مدرسة لا جمهور فيها.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

إن النفس البشرية قد تفسد حتى الأعمال الصالحة حين تراها العيون. تسلسل إليها الرغبة في الأثر والصورة والانطباع.

أما حين تقوم والناس نيام، فإن مساحة الإخلاص تتسع. فأنت تمارس عملاً لا يعيد إليك من العالم مردوداً مباشراً.

وهنا نتعلم الروح أن تكفيها معرفة الله بها. فإذا خرجت في النهار، لم تعد جائعةً بالقدر نفسه إلى معرفة الناس بفضيلها.

وربما كان هذا أحد أعرق أسباب القوة النفسية التي يصنعها قيام الليل: أنه يقطع القلب قليلاً عن التصفيق.

وإذا كان التزمل يستر الجسد، فإن الترتيل يبدأ بكشف القلب.

تدخل الليل محملاً بأشياء لا تعرف أسماءها: خوفٌ صغيرٍ اختبأ خلف انشغالك، وحزنٌ لم تمنحه وقتاً، ورغبةٌ في اعتراف الناس لم تكن تعلم أنها تكبر فيك، وغضبٌ قديمٌ تعلم كيف يتنكر في هيئة مبدأ.

ثم تقرأ القرآن على مهل، فيبدأ النور بتسمية الأشياء.

هذه إحدى وظائف الوحي الكبرى. فهو لا يعطيك معلومات عن العالم فقط، بل يكشف لك نفسك.

وقد يكون أصعب ما يواجهه الإنسان ليس أن يعرف ما حوله، بل أن يرى ما في داخله دون تزيف.

سُورَةُ الْمَزْمِلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وحين يقول الله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾، فكأن الطريق إلى حمل الرسالة يبدأ من أن تدع الرسالة تحملك أولاً.

قبل أن نتكلم بالقرآن، ينبغي أن يتكلم القرآن فيك. وقبل أن تستخدمه حجةً على غيرك، ينبغي أن يكون حجةً عليك. وقبل أن تطلب به تغيير الناس، ينبغي أن تسمح له بأن يغيرك.

وهذه نقطةٌ تضع كثيراً حين يتحول الوحي عند بعض الناس إلى مادة سجال.

يحفظ المرء الآية ليرمي بها خصمه، وينسى أنها نزلت أولاً لتقيم ميزاناً في قلب حاملها.

أما المزمّل فتد القرآن إلى وظيفته الأولى في التربية:

اقرأه وحدك قبل أن تقرأه عليهم.

ولهذا يبدو مطلع السورة كأنه يرسم أماناً صورة الإنسان قبل الرسالة وبعدها.

كان مزملاً، ثم صار قائماً. وكان الليل ظرف راحته، فصار جزءاً من بنائه. وكان القرآن كلاماً يُتلقى، فصار علماً يُرتل ويُعاش.

وكل تحول كبير يبدأ هكذا. لا بضجيج الانقلاب، بل بطاعةٍ صغيرةٍ تكرر حتى تعيد تشكيل صاحبها.

إن الله لم ينزع عن نبيه ﷺ بشريته حتى يحمله الوحي. وإنا ربّي هذه البشرية نفسها لتكون أقدر على حمله.

وهذا معنى جليل لمن أرقهته مثالية الطريق.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ليس المطلوب أن تتحول إلى كائن لا يتعب، ولا يضعف، ولا يحتاج إلى نوم. المطلوب أن تتعلم كيف تدير ضعفك في طاعة الله.

وأن تقتطع من راحتك ما يحيي قلبك. وأن تجعل لك وراء نهارك عالماً سرياً مع الله، يمدك بما لا يستطيع النهار أن يمنحك إياه.

وكلها تأملت هذه الآيات الأربع، بدا لي أن أول انتصار في سورة المزمل ليس على عدوّ، بل على الفراش.

وليس في ميدان، بل في قلب الليل. وليس بسلاح ظاهر، بل بإنسان استطاع أن يقول لجسده، حين دعاه الله: قم.

إن الذي لا يستطيع أحياناً أن يفارق راحته لله، كيف سيفارق مألوف الناس لله؟ والذي تنهزم إرادته أمام دقائق من النوم، كيف يحمل ساعات الأذى الطويلة؟

لم يكن قيام الليل تدريباً منفصلاً عن الرسالة. كان تدريباً على أصلها:

أن يكون أمر الله أثقل في القلب من نداء النفس.

وهكذا تنتهي الآية الرابعة، ولا ينتهي الإعداد.

لقد قام المزمل، وبدأ القرآن ينساب في الليل مرتباً، بطيئاً، عميقاً، لكن السؤال يظل قائماً:

لماذا كل هذا؟ لماذا هذا القيام الطويل، وهذه المجاهدة، وهذا الترتيل المتأني؟

ويأتي الجواب في الآية التالية كجبل يظهر فجأة خلف الأفق:

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ
﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

وهنا ندرك أن الليل لم يكن هو الغاية.

كان إعداداً لحمل شيءٍ أثقل من الليل نفسه.

الفصل الثاني

حين يكون النور ثقیلاً

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۖ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۖ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۖ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۖ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾

بعد أن أمر الله نبيه ﷺ أن يقوم الليل ويرتل القرآن ترتيلاً، تأتي الآية الخامسة لتكشف سر هذا الإعداد كله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. كلمة واحدة هنا تغيّر نظرنا إلى الوحي وإلى الدين وإلى الطريق كله: ثقيلاً. فالقرآن نور، لكنه ليس نوراً خفيفاً يمر على سطح الحياة ثم يتركها كما كانت؛ إنه نور يكشف، ويكلف، ويغيّر، وينزع من النفس أعارها، ويقيم أمامها موازين جديدة، ويطلب منها أن تعيد بناء علاقتها بالله والناس والدنيا والمصير. إنه رحمة، ولكن الرحمة التي تنقذك ليست دائماً رخوة؛ قد تأتيك أحياناً في صورة حقيقة تهدم وهماً عشت فيه طويلاً، أو تكليف يخرجك من منطقة راحتك، أو ميزان يكشف لك أنك لم تكن عادلاً كما ظننت، أو أمر يدعوك لأن تترك شيئاً تحبه لأن الله يحب منك غيره.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾؛ تأمل هيئة التعبير. ثمة مُلقٍ، وثمة قول يُلقى، وثمة قلبٌ يتلقى. ليس القرآن فكرةً استخرجها بشر من ذاته، ولا تجربة روحية تولدت في وجدان صاحبها ثم صاغها كلاماً، وإنما هو قولٌ يأتي من عند الله، ويلقى على الرسول ﷺ. وحين يستقر هذا المعنى في القلب تتغير علاقتنا بالقرآن كله؛ فأنت لست أمام كتابٍ نشأ من الأرض لكي

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

تحاكمه بأهواء الأرض، بل أمام خطابٍ نزل من فوق تصورات الإنسان ومحدودية تجربته، يخبره من هو، ومن أين جاء، وإلى أين يمضي، وما الذي يصلحه وما الذي يهلكه.

أما الثقل فله وجوه متعددة تتآزر ولا تناقض. هو ثقل في تلقيه على النبي ﷺ بما عُرِف من شدة نزول الوحي عليه، وثقل في معانيه وتكاليفه، وثقل في أمانة حمله وتبليغه، وثقل في الميزان لأنه كلام رب العالمين. وليس من التدبر المنضبط أن نحصر لفظاً واسع الدلالة في خاطر واحد، لكن من حق القلب أن يقف أمام هذه الحقيقة: أن الكلمة الإلهية ليست شيئاً يستطيع الإنسان أن يحمله بلا إعداد. ولهذا جاء القيام قبل القول الثقيل، وجاء الترتيل قبل التكليف الواسع؛ لأن الأشياء العظيمة تحتاج أوعيةً تناسبها، وأثقل ما في طريق الحق قد لا يكون عدوه الخارجي، بل أن يصبح قلبك قادراً على تحمل تبعات ما عرفت.

ونحن نعيش أحياناً مفارقة مؤلمة: نريد قرأناً يطمئنا، لكننا لا نريده أن يغيرنا؛ نريد الآيات التي تسمح على جراحنا، ولا تقترب كثيراً من الآيات التي تمس أوهامنا؛ نبحث فيه عما يخفف عنا ثقل الحياة، وننسى أن من مقاصده أن يضع على ضمائرنا ثقل المسؤولية. والقرآن يفعل الأمرين معاً بميزان لا يستطيعه إلا كلام الله؛ يربّت على المنكسر، ويوقظ الغافل، ويؤنس الوحيد، ويهدد المتكبر، ويفتح باب الرجاء للمذنب، ثم يطالبه ألا يتخذ الرجاء ذريعة للإقامة على الذنب. إنه لا يدخل الإنسان ليترك ترتيب قلبه القديم على حاله، بل لينقل مركز حياته من نفسه إلى ربه.

وهذا سر من أسرار وصفه بالثقل: الحقيقة ثقيلة على الوهم، والتوحيد ثقيل على القلب الموزع بين أرباب كثيرة، والآخرة ثقيلة على نفسٍ أدمنت العاجلة، والإخلاص ثقيل على

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ذاتٍ تتغذى من نظر الناس، والصبر ثقيل على من يريد الثمرة قبل أوانها، والعدل ثقيل حين يكون على حساب مصالحنا، والعفو ثقيل حين نملك القدرة على الانتقام، والثبات ثقيل حين تصبح الكلفة شخصية. وليس ثقل القرآن نقصاً فيه، بل من جلاله؛ فالذهب أثقل من التراب، والحقيقة أرسخ من الخيال، وما يبين الإنسان من جذوره لا يمكن أن يكون مجرد كلمات خفيفة تداعب سطح الشعور.

والقول الثقيل يحتاج قلباً له وزن. هذه، في ظني، واحدة من أعظم معادلات السورة. القلب الخفيف الذي تحمله كل شائعة، ويقبله كل مديح، ويجرحه كل تجاهل، وتستفزه كل كلمة، ويعيد تشكيل موقفه كل صوت مرتفع؛ هذا القلب كيف يحمل قولاً ثقیلاً؟ إن السورة تبني في الداخل ثقلًا يقابل ثقل الرسالة: ثقل اليقين، وثقل الصلة بالله، وثقل العبادة، وثقل الآخرة في الضمير. فإذا صار الله في قلبك وزنٌ عظيم، خفت أشياء كثيرة كانت تثقل عليك؛ وإذا عظمت الآخرة، صغرت خسائر الدنيا؛ وإذا امتلأت بكلمات الله، فقدت كلمات البشر جانباً كبيراً من سلطانها عليك.

ولهذا يأتي بعد القول الثقيل تفسير آخر لسر الليل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. إن ساعات الليل التي ينشأ فيها العبد لعبادته لها خصوصية في توافق القلب واللسان والجوارح، وفي استقامة القراءة والحضور. ففي النهار تتنازعك الجهات، أما الليل فيجمع شتاتك؛ فيهدأ الخارج فيسمع الإنسان شيئاً من داخله، وتسكت أصوات المطالب حتى يظهر صوت الحاجة الكبرى التي كثيراً ما يغطيها الصخب: حاجتك إلى الله.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

الليل لا يجعل القرآن مختلفاً، ولكنه يجعل المتلقي مختلفاً. والفرق هائل بين أن تقرأ الوحي وقبلك مشرّع لعشرات الأصوات، وبين أن تقرأه وقد سكن معظم ما حولك. الآية نفسها هي الآية، ولكن أرض القلب تغيرت. إن المطر الذي يسقط على أرض مشققة عطشى ليس هو المطر نفسه حين يسقط على سطح لا يمسك شيئاً؛ لا لأن الماء تغير، بل لأن موضع الاستقبال تغير. والليل في التربة القرآنية يهيئ أرض الاستقبال.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾؛ في قيام الليل مجاهدة ظاهرة، لأن الجسد يريد نصيبه من الراحة، غير أن وراء هذه المجاهدة نوعاً من التواطؤ العجيب بين قوى الإنسان حين يصدق في القيام، تقل المشوشات، ويقترب القلب من اللسان، ويصبح القول أكثر رسوخاً. وما أندر أن يجتمع الإنسان على نفسه في النهار؛ جسده في مكان وعقله في مكان وذاكته في مكان وخوفه في غدٍ لم يأت بعد. أما في لحظة صفاء حقيقة بين يدي الله، فيعود المرء من تشتته، وكأن العبادة لا تجمع به بالله فحسب، بل تجمع به بنفسه أيضاً.

وهنا نفهم لماذا يحتاج الإنسان إلى العبادة حتى من زاوية تكوينه الداخلي؛ فهو لا يعيش فقط مشكلة الذنب، بل مشكلة التشظي. يوزع ذاته على أشخاص وأعمال ومخاوف وطموحات ورسائل وأخبار حتى يكاد لا يبقى منه شيء لنفسه، ثم تأتي الصلاة والذكر والقرآن فتجمع هذه الأجزاء تحت حقيقة واحدة: أنت الآن بين يدي الله. وما أعظم أن يجد الإنسان في يومه موضعاً لا يحتاج فيه إلى أن يؤدي عشرات الشخصيات، وإنما يكفيه فيه أن يكون عبداً.

﴿وَأَقُومْ قِيلاً﴾، أي أن القول في الليل أقرب إلى الاستقامة والثبات والحضور. وليس المقصود حسن الصوت وحده، وإن كان الترتيل حسناً مطلوباً، وإنما وراء جمال النطق جمال أعمق: أن يستقيم الكلام في القلب قبل أن يستقيم على الشفتين. كم من إنسان يستطيع أن ينطق أعظم الكلمات بينما حياته تمضي بعيداً عنها، وكم من آية نحسن إخراج حروفها ولا نحسن إدخال معناها إلى خياراتنا. إن «أقوم قيلاً» تفتح للتدبر باباً ليحاسب علاقته بالكلام: ليس السؤال دائماً كيف أقول؟ بل أين يقف ما أقول من قلبي؟

إن الليل يفضح الجمالة التي نستطيع ممارستها في الضوء. أمام الناس يمكن للإنسان أن يبدو قوياً وهو هش، مطمئناً وهو مضطرب، زاهداً وهو شديد التعلق، مخلصاً وهو يتتبع الصدى الذي أحدثه في العيون. أما في الليل، حين يسقط الجمهور، يبقى السؤال صافياً: ماذا يبقى منك إذا لم يرك أحد؟ إن بقيت لك عبادة لا يعرفها أحد، ودعاء لا يسمعه إلا الله، ودعوة لا تحملها صورة، وقراءة لا تنتظر عليها إعجاباً، فقد بدأ في داخلك شيء لا يستطيع العالم بسهولة أن يشتره.

ثم تنتقل السورة انتقالاً بديعاً من الليل إلى النهار: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾. وما أجمل كلمة سبْحاً في هذا الموضع. إن النهار ليس فراغاً، بل حركة واسعة، وانشغلاً ممتداً، وتصرفاً في شؤون الدعوة والحياة. كأن الإنسان في النهار يسبح في بحر من الأعمال والوجوه والواجبات، والسباحة تحتاج قدرةً مستمرة، لأنك إن توقفت في الماء لم يبق لك ثبات الأرض.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

والسورة لا تعيب هذا السبح؛ فالنهار خلق للحركة، والرسالة لا تعاش في العزلة، والإيمان ليس انسحاباً من عمارة الحياة. لكن الخطأ أن يدخل الإنسان البحر بلا زاد من الشاطئ، وأن يسبح طويلاً دون أن يكون لقلبه مرسى. الليل مرسى، والنهار بحر. الليل اجتماع، والنهار انتشار. الليل أخذ، والنهار عطاء. الليل جذر، والنهار غصن. والمأساة تبدأ حين نريد أغصاناً تملأ الأفق ونحن نقطع الجذور التي تمدّها بالحياة.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ ليست وصفاً للانشغال وحده، بل اعترافٌ إلهي بطبيعة الحياة. الله الذي يأمرك بالقيام يعرف أن لك نهراً طويلاً، وأعمالاً، ومسؤوليات، ومشاكل. العبادة في القرآن لا تقوم على إنكار الواقع البشري، بل على حسن ترتيبه. لا يريدك الله كلمةً من الطقوس منفصلة عن الحياة، ولا كلمةً من الأعمال منقطعة عن الروح؛ وإنما يريد إنساناً له ليلٌ يمدّ نهاره، ونهارٌ يشهد صدق ليله.

وكم في هذا من تصحيح لصورة شائعة عن التدين؛ فبعض الناس يظن أن كثرة الانشغال بالدنيا عذر دائم لانطفاء الروح، وبعضهم يتوهم أن صفاء الروح لا يتحقق إلا بهجر ميادين الحياة. أما المزمّل فتجمع الطرفين في بناء واحد: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾، ثم ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾. قم في الليل ثم اسبح في النهار. لا تسكن إلى الليل حتى تهجر واجبك، ولا يغرقك النهار حتى تنسى مصدر قوتك.

وقد يكون من أعمق أزمت الإنسان المعاصر أنه يعيش «السبح الطويل» دون «ناشئة الليل». يومٌ كامل من الرسائل والمواعيد والأخبار والمطالب، ثم نومٌ مثقل، ثم يومٌ جديد يشبه سابقه. تستمر الحركة، لكن المعنى يذبل. وتزداد السرعة، لكن الوجهة تصبح أكثر

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

غموضاً. وقد يحقق المرء أشياء كثيرة ثم يفاجأ أنه لم يعد يعرف لماذا يحققها. سورة المزمل لا تعالج ضغط العمل بتقليل الحياة إلى الصفر، بل بإعادة وضع القلب في موضع القيادة: خذ وقتاً يكون فيه كل شيء صامتاً إلا الحقيقة.

ثم تأتي الآية: ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾. وبعد القيام والقرآن والليل والنهار تدخل السورة إلى أصل جامع: الذكر. وما ألطف قول الله: ﴿اسْمَ رَبِّكَ﴾؛ الرب الذي يريك ويدرك ويقوم عليك ويرعاك. إن الإنسان في نهاره يتعامل مع أسماء كثيرة: أسماء خصوم، وأصدقاء، وأصحاب نفوذ، وأخبار، وأماكن، ومخاوف؛ وكل اسم يأخذ من الوعي نصيباً. ثم يحيي القرآن ليقول: اجعل اسم ربك حاضراً فوق هذه الأسماء، حتى لا يتحول شيء منها إلى مركز وجودك.

فالذكر ليس تكرار لفظٍ باللسان مع غياب القلب فحسب، وإن كان ذكر اللسان عبادة عظيمة، وإنما كمال الذكر أن يبقى الله حاضراً في ميزانك وأنت تتعامل مع الأشياء. أن نتذكره عند القرار، وعند الغضب، وعند النجاح، وعند الخوف، وعند الإغراء، وعند الخسارة؛ لأن أخطر أنواع النسيان ليس أن تنسى لفظاً، بل أن تتصرف لحظة وكأن الله ليس في ميزانك.

و﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ تأتي بعد ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ كأنها دواء التبعض. فالعمل الطويل يفرق القلب، والذكر يعيده. المخالطة تترك غباراً، والذكر يغسل. الأحداث تقنعك أحياناً بأن زمام الدنيا في أيدي أصحاب القوة، والذكر يردك إلى الحقيقة. الناس يرفعون أسماءهم عالياً،

والذكر يعيد الاسم الأعظم في وعيك إلى مكانه الأعلى. ولذلك لا يكون الذكر انفصلاً عن الواقع، بل تصحيحاً لطريقة رؤيته.

ثم يرتفع الخطاب درجة أخرى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾. والتبتل هو الانقطاع إلى الله والإخلاص له، انقطاع قلب لا يلزم منه انقطاع الجسد عن الناس والحياة. وهذه التفرقة شديدة الأهمية؛ فالسورة نفسها أخبرتنا أن في النهار سباً طويلاً، فلا يمكن أن يكون التبتل المطلوب هجراً للحياة وواجباتها. إنما هو أن يكون قلبك، وسط كثرة العلاقات، ذا وجهة واحدة؛ تتعامل مع الخلق، ولكنك لا تجعلهم أرباباً لشعورك؛ تعمل في الأسباب، ولكنك لا تمنحها مقام المسبب؛ تحب البشر، ولكنك لا تجعل محبتهم تراحم حق الله؛ تحزن لفقدهم، لكنك لا تفقد ربك بفقدهم.

التبتل ليس أن لا يكون لك شيء في الدنيا، بل أن لا يكون لشيء من الدنيا حق السيادة على قلبك. قد يملك الإنسان بيتاً ومالاً وعملاً وصدقات، ثم يكون متبتلاً إلى الله لأن هذه الأشياء كلها تحت الله في قلبه، لا فوق أمره. وقد يملك آخر القليل ويعيش معزولاً، ومع ذلك يكون قلبه متعلقاً بنظرة إنسان أو مكانة أو شهوة أكثر من تعلق صاحب الأموال بماله. فالانقطاع الحقيقي ليس مسألة جغرافيا، بل مسألة مركز.

وما أعجب مجيء المصدر بعد الفعل مرة أخرى: ﴿تَبْتِيلًا﴾، كما قيل قبلها: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾. كأن السورة تريد الجودة لا الصورة؛ ليس مجرد ترتيل بل ترتيل حق، وليس مجرد التفات إلى الله بل تبتل تتخلص فيه الوجهة من منافسيها. فالقلوب لا تبتلى غالباً بإنكار الله صراحة، وإنما بابتداع شركاء صغار في مركز الاهتمام: ماذا سيقول فلان؟ كيف أبدو؟

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُبَيِّتُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ماذا لو فقدت مكاني؟ ماذا لو لم يحبني هؤلاء؟ ماذا لو سبقني ذاك؟ وكل سؤال من هذه الأسئلة قد يتحول، إن استفحل، إلى خيط يشد القلب بعيداً عن حريته.

التبتل يقطع هذه الخيوط لا ليجعل الإنسان بارداً تجاه الحياة، بل ليعيد كل شيء إلى حجمه. تحب، ولكن لا تعبد الحب. تعمل، ولكن لا تعبد النجاح. تخطط، ولكن لا تعبد الخطة. تستشير الناس، ولكن لا تجعل رضاهم قبلة. تمسك بالأسباب بكل جدية، ثم يبقى في أعماقك موضعٌ لا يقول إلا: يا رب.

ثم تعطي السورة هذا التبتل أساسه العقدي العظيم: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. لم أتبتل إليه وحده؟ لأنه ليس رب محرابي فقط، ولا رب اللحظة الروحية وحدها، وإنما ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾؛ رب الجهات كلها، ورب حركة الشمس التي تراها كل يوم فتظنها مألوفاً، ورب هذا الكون الذي لا يخرج منه شيء عن ملكه وتديره. فالتوحيد في القرآن ليس فكرة ميتافيزيقية معلقة فوق الحياة؛ إنه الحقيقة التي تعيد توزيع الخوف والرجاء والاعتماد في النفس.

حين تعرف أنه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، تضيق مساحة الخوف من البشر؛ لأن الذين تخافهم يعيشون أصلاً داخل ملكه. وحين تعرف ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، تدرك أن القلب الذي خُلق لعبادته لا ينبغي أن يبعثر ذلّه النهائي بين مخلوقات مثله. الناس قد ينفعون ويضرون بأسباب قدرها الله، ولهم في حياتنا حقوق ومكانات، لكن شيئاً منهم لا يستحق أن يصبح إلهاً خفياً في الضمير، نطيعه في معصية الله أو نبيع من أجله يقيننا أو نجعل رضاه أعلى من رضا رب العالمين.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ثم تأتي نتيجة كل ما سبق: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

يا لها من خاتمة لهذه السلسلة.

قم. ورتل. واحمل القول الثقيل.

واجعل الليل موضع تثبيتك.

واسبح في النهار.

واذكر ربك.

وتبتل إليه.

واعرف أنه رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو.

ثم، بعد كل ذلك: اتخذه وكيلًا.

كأن السورة تقول إنك بعد أن تفعل ما عليك، لا تحمل العالم على ظهرك. هناك فرق بين أن تحمل الأمانة وبين أن تتوهم أنك تحمل النتائج. الأولى عبودية، والثانية استنزاف. أنت مأمور بالصدق والعمل والثبات والتبليغ، لكنك لست رب القلوب، ولا مالك الغد، ولا من بيده نهايات الأشياء. وهنا يجيء التوكل رحمةً بالإنسان من الوهم القاتل بأنه مسؤول عن كل شيء.

وما أرق القلوب مثل تحميلها ما لم يكلفها الله بحمله. تريد أن تضمن المستقبل، وأن تتحكم في نظرة الناس، وأن تمنع كل خسارة، وأن تصلح كل شخص تحبه، وأن تعرف كيف ستنتهي

جميع المعارك، ثم تنهار لأنك تحاول ممارسة وظيفة ليست لك. ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ليست كلمة لتهذئة العاطفة فقط؛ إنها تحرير عقدي ونفسي من ادعاء السيطرة.

الوكيل هو الذي تفوض إليه أمرًا اعتماداً عليه، والله سبحانه هو نعم الوكيل. غير أن التوكل القرآني ليس كسلاً، لأن الذي قيل له ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ هو نفسه الذي قيل له ﴿قُمْ﴾. وهذه وحدها تكفي لإسقاط الفهم الكسول للتوكل. السورة تجمع أشد الحركة وأصغى التفويض؛ قم بما عليك بكل قوتك، ثم لا تتأله على النتائج. ابدل كأن العمل أمانتك، واطمئن كأن الأمر كله لله، لأنه كذلك.

ولعل التوكل يصبح أجمل ما يكون بعد التبتل؛ فمن انقطع قلبه إلى الله سهل عليه أن يفوض أمره إليه، أما القلب الذي قسم ثقته بين ألف جهة فيظل قلقاً؛ إذا تغيرت جهة اهتز معها. ولذلك ليست الطمأنينة أن تصبح الظروف مضمونة، بل أن يصبح الوكيل معلوماً. والإنسان الذي يعرف وكيله قد يخاف بطبيعته، ويحزن، ويتعب، لكنه لا يسقط في الفراغ؛ لأن وراء الأسباب التي تضطرب رباً لا يضطرب تديره.

إنك لا تحتاج لكي تطمئن أن تعرف ماذا سيحدث غداً؛ تحتاج أن تعرف من يملك غداً. ولا تحتاج أن يعدك الناس أنهم لن يخذلوك؛ تحتاج إلى ألا تجعل نجاتك النهائية رهينة وفائهم.

ولا تحتاج إلى طريق بلا مفاجآت؛ تحتاج إلى وكيل لا تفاجئه الأشياء.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وهنا تبلغ الآيات ذروة عجيبة في بناء القلب. في البداية كان الإنسان متزماً بثوبه، ثم أمر بالقيام، ثم حمل القرآن، ثم عرف أن ما يحمله ثقیل، ثم أعطي الليل ليتيأ، والذكر ليتصل، والتبتل ليتحرر، والتوحيد ليستقيم، والتوكل ليستريح من حمل ما ليس له.

إنها تربية دقيقة جداً: الله لا يخفف عنك عظمة الرسالة، لكنه يخفف عنك وهم أنك تحملها وحدك.

وهذا فرق يصنع كل شيء.

قد يبقى الطريق صعباً، لكنك لا تسير بلا رب. وقد يبقى الناس على أذاهم، لكنك لا تنتظر منهم أن يكونوا مصدر أمنك. وقد تأتيك أحداث لا تفهم حكمتها في لحظتها، لكنك لا تفسر الغموض على أنه غياب للتدبير. وقد تغلق أمامك أبواب كنت تظن أن حياتك متوقفة عليها، ثم تذكر أن رب المشرق والمغرب لا تختصر خزائنه في باب.

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ تعيد القلب من النتائج إلى رب النتائج، ومن الخلق إلى خالقهم، ومن اضطراب الاحتمالات إلى ثبات الحقيقة.

وبقدر ما يكون الله كبيراً في قلبك، تصغر الحاجة إلى أن يكون كل شيء مفهوماً.

وبقدر ما تعرفه وكيلاً، يقل ذعرك من الأشياء التي لا تستطيع التحكم فيها.

وبقدر ما تبتل إليه، تسترد قلبك من أيدي الذين وزعته بينهم دون أن تشعر.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وهكذا لا تصنع سورة المزمّل عابداً منعزلاً عن الحياة، بل تصنع إنساناً يتحرك فيها وهو موصول بالسماء؛ قلبه في الليل عند الله، وجسده في النهار بين واجبات الأرض، ولسانه ذاكر، وروحه متبته، ويده تعمل، ونتائج عمله مفوضة إلى من بيده المشرق والمغرب. وهذه هي القوة التي أرادت السورة أن تبنيها قبل أن تضع صاحبها وجهاً لوجه أمام أذى المكذّبين.

فإن من عرف الله ويكلاً، أصبح مهياً لسماع الأمر التالي:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

الآن فقط يأتي الناس.

بعد أن امتلأ القلب بالله.

الفصل الثالث

حين يصير الصبر ثمرةً لليل

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَانْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۖ وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ۖ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ۖ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۖ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا﴾

بعد أن بنى الله لنبيه ﷺ عالمه الداخلي بالقيام والترتيل والذكر والتبتل والتوكل، يأتي الآن الامتحان الذي تكشف فيه الأيام مقدار ما صنعه الليل في القلب: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. وكأن السورة تقول إن العبادة التي لا تتحول إلى قدرةٍ على احتمال أذى الطريق لم تبلغ بعد تمام ثمرتها؛ فقيام الليل ليس غايةً منعزلةً عن أخلاق النهار، والذكر ليس حالةً وجدانيةً تنتهي بانتهاء المجلس، والتوكل ليس راحةً داخليةً لا يمتحنها شيء، وإنما كل ما سبق كان إعداداً لهذه اللحظة بالذات: أن يقول الناس ما يؤلم، وأن يستطيع القلب مع ذلك ألا يفقد ميزانه.

وتأمل قوله: ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. إن الأذى هنا أذى الكلام، وليس الكلام شيئاً هيناً كما قد يتوهم من لم يُجرب به؛ فالكلمة تستطيع أن تدخل إلى مواضع لا تصل إليها اليد، وأن تبقى في الذاكرة بعد أن ينسى صاحبها أنه قالها، وأن تهدم في لحظة صورةً بناها الإنسان في قلوب الناس أعماماً، وأن تلبس الصادق ثوب الكاذب، والمخلص ثوب صاحب الغرض، والمحسن ثوب المسيء. ولذلك لم يقل القرآن للنبي ﷺ إن ما يقولونه لا يؤلم، ولم يحوّل الصبر إلى إنكار

سُورَةُ الْمَزْمِلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

للطبيعة البشرية، وإنما أمره أن يصبر عليه؛ وما أمر الإنسان بالصبر عليه فهو شيء له وزن وكلفة.

الصبر القرآني ليس موت الإحساس، وليس أن تصبح الكلمات سواءً عندك، ولا أن تنزع عن القلب قابليته للألم حتى يثبت؛ بل أن يتألم القلب ولا تتغير بوصلته، وأن تجرحه الكلمة فلا تدفعه إلى كلمةٍ تدم عليها، وأن تضيق النفس دون أن تضيق الأخلاق، وأن تعرف أنك تستطيع الرد ثم تختار من الرد ما يرضي الله، لا ما يشفي الغضب للحظة ثم يترك في الروح عطباً طويلاً.

وهنا نفهم مرةً أخرى لماذا سبق قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. فمن جعل الله وكيله استطاع أن يترك بعض المعارك لله، أما الذي يشعر أن عليه أن يحمي صورته بنفسه أمام كل لسان فلن يستريح أبداً؛ لأن السنة الناس لا تنتهي، وسوء الفهم لا يمكن إصلاحه كله، والافتراء قد يصل إلى أماكن لا تبلغها حجتك، ومن جعل حياته مطاردةً لكل كلمة قيلت فيه فقد أعطى الناس سلطةً هائلةً على عمره وقلبه.

الصبر هنا يعيد توزيع المسؤوليات: مهمتك أن تستقيم، لا أن تضمن أن يراك كل أحد مستقيماً؛ مهمتك أن تصدق، لا أن تمنع كل كاذب من الكذب عليك؛ مهمتك أن تؤدي ما كلفك الله به، لا أن تحمل عقول الناس جميعاً حتى تجعلها تفهمك كما تريد. وفي هذا التحرر من مراقبة الانطباعات قوةً لا يعرفها إلا من ذاق شيئاً من التوكل، إذ يستطيع الإنسان حينئذ أن يمضي في طريقه دون أن يستدير كل خطوات قليلة ليرى ماذا يقول الناس خلفه.

ثم لا تكتفي الآية بالصبر، بل تضيف أدباً أرفع: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

والهجر في ذاته قد يكون سهلاً؛ يستطيع الإنسان أن يتعد وهو ممتلئ بالغضب، وأن يغادر مجلساً وقلبه يحمل المجلس معه أياماً، وأن يقطع العلاقة بلسانه بينما يظل الآخر ساكناً في رأسه، يناقشه في الخيال، ويخاصمه في داخله، ويبعد عباراته قبل النوم وبعد الاستيقاظ. لكن القرآن لا يريد مجرد الهجر، بل يريد هجراً جميلاً؛ وهذه الإضافة تطلب معنى الابتعاد كله.

الجمال هنا هو أن لا يتحول تركك للهوذي إلى صورة أخرى من الأذى، وأن لا ترد الإساءة بإساءةٍ تشبهها، وأن تعرف متى لا يعود الحوار منتجاً فتسحب دون فحش ولا تشفي ولا انحدار. إنه هجرٌ تحفظ فيه مبدأك من أن يفسده خصمك، وتحفظ فيه لسانك من أن يصير نسخةً من لسان من آذاك. فالخصومة لها قدرة خفية على تشكيل خصومها؛ قد تبدأ وأنت ترفض خلقاً، ثم تطيل الاشتباك حتى تكتسبه من حيث لا تشعر، ولهذا كان من أجمل صور الانتصار ألا تسمح لمن أساء إليك أن يحدد لك أخلاقك.

الهجر الجميل ليس ضعفاً، بل امتلاكٌ للنفس في لحظة يستطيع الغضب فيها أن يمتلكها. وهو لا يعني إقرار الباطل ولا ترك البيان الواجب، وإنما يعني أن لا يتحول موقفك من الباطل إلى عبوديةٍ للخصومة نفسها؛ فالحق أكبر من خصومه، والعبد لله لا للمعركة. ورب إنسان بدأ دفاعه عن حق ثم نسي الحق نفسه، وصارت حياته كلها متعلقةً بالخصم: يراقبه، ويرد عليه، ويستيقظ معه، وينام عليه، حتى صار عدوه مركزاً في وجدانه أكثر من المبادئ التي زعم أنه يقاتل من أجلها.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

سورة المزمّل تقطع هذا المرض من أصله: ﴿وَأَهْرَجَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾. امضِ. لا تجعل الطريق كله معسكراً للرود. هناك رسالة أكبر من أن تُستهلك في ملاحقة كل سخرية، وهناك عمر أقصر من أن يُدفع ثمناً لكل خصومة.

ثم يأتي التحول المهيّب: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾.

ما أثقل هذه الكلمة على ميزان القلب: وذرنى.

كأن الله سبحانه يخفف عن رسوله ﷺ حملاً آخر لم يكلف بحمله: حساب المكذّبين ونهاياتهم. لقد قيل له قبل قليل: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، وهنا يتجسد معنى الوكالة في الموقف: دعهم لي.

إن في هذه الكلمة سكينَةً ومهابةً معاً، سكينَةً للمؤمن لأنه ليس مطالباً بإدارة العدالة الكونية بنفسه، ومهابةً للمكذب لأن خصومته لم تعد مع عبدٍ يستطيع أن يؤذيه أو يعجز عنه، بل صار أمره إلى الله. والذي يقرأ القرآن يدرك أن من أشد ما يريح المؤمن في معارك الحق أن يعرف أن الله ليس غائباً عن المشهد، وأن تأخر الجزاء ليس فقدًا للسيطرة، وأن إهمال الظالم لا يعني إهماله.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ تربي في الداعية والمؤمن شيئاً نادراً: ألا يستعجل أن يرى العقوبة بعينه حتى يطمئن إلى عدل الله. فالإيمان بعدل الله لا ينبغي أن يكون مشروطاً بأن تقع النهاية في الموعد الذي حدده غضبنا؛ لأننا نرى لحظةً، والله يعلم المسار كله، ونحن نستعجل من نافذة العمر القصير، بينما حكم الله يمتد إلى الدنيا والآخرة.

سُورَةُ الْمَزْمِلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ثم يصف هؤلاء المكذبين بقوله: ﴿أُولِي النِّعْمَةِ﴾؛ أصحاب النعم والسعة. وهذه الإشارة ليست اعتراضاً على النعمة في ذاتها، فالمال والرخاء من نعم الله إذا شُكِرَ، وإنما تكشف المفارقة حين تتحول النعمة من جسرٍ إلى الشكر إلى ستارٍ عن المنعم، وحين تمتح صاحبها إحساساً زائفاً بأن استقرار حياته دليلٌ على صحة موقفه.

ومن أخطر أوهام الإنسان أن يقرأ رضى الله من راحته المادية وحدها، أو يقرأ سخطه من شدته الدنيوية وحدها. قد يكون المكذب في نعمة، وقد يكون المؤمن في ضيق، ولا يعني هذا أن ميزان الحقيقة قد انقلب. الدنيا ليست محكمة الجزاء النهائي، ولو كانت كذلك لما بقي للآخرة معناها. ولهذا تفكك السورة الوهم الذي تصنعه القوة والثراء: لا تنظر إلى ما في أيديهم فتظن أن الأمر قد استقر لهم؛ انظر إلى من بيده ما في أيديهم وما وراء أيديهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَهُلَهُمْ قَلِيلًا﴾.

كلمة قليلاً تغير مقاييس الزمن. قد يبدو الإمهال للإنسان طويلاً لأن عمره قصير، لكن ما بقي إلى الآخرة قليل إذا قيس بما بعدها؛ وكل زمن ينتهي قليل أمام زمن لا ينتهي. كم من قوة بدت في لحظتها راسخة كأنها لن تزول، ثم أصبحت خبراً في كتاب، وكم من صوتٍ ملأ عصره ضجيجاً ثم صار أثراً لا يكاد يسمعه أحد. ومن يعيش داخل اللحظة يبالغ في حجمها، أما القرآن فيرفع عينه إلى الأفق الأخير: ﴿وَمَهُلَهُمْ قَلِيلًا﴾.

إن من أسباب اضطراب القلب أن يقيس الأشياء بعمر اللحظة؛ فيرى الباطل متقدماً فيظن أنه انتصر، ويرى الحق ضعيف الأدوات فيظن أن الميزان اختل. لكن القرآن لا يسمح

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

للمؤمن أن يجعل الساعة الراهنة هي الصفحة الأخيرة. هناك دائماً ما بعد المشهد، وما بعد القوة، وما بعد الضحك، وما بعد الموت.

ثم يفتح فجأة مشهد الآخرة: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾.

بعد دفء المزمّل، وسكون الليل، وترتيل القرآن، يأتي ذكر الأنكال والجحيم؛ وكأن السورة تنقل القلب من محراب التربية إلى محكمة المصير. والأنكال قيودٌ ثقيلة، والجحيم نارٌ عظيمة؛ مشهدٌ يراد به أن ينزع عن جبروت المكذّبين صورته التي يراها الناس في الدنيا. من كان في الأرض حراً يبطش بما شاء قد يجد القيود هناك، ومن أحاط نفسه بأسباب النعم قد يواجه الجحيم.

وهذا الانقلاب من خصائص التصوير القرآني للآخرة؛ إذ يكشف أن الدنيا لا تعرض لك الحقيقة كاملة. ترى الآن الغني في قصره ولا ترى مآله، وترى المظلوم في ضيقه ولا ترى تمام قصته، وترى المتكبر محاطاً بالحاشية ولا ترى وحدته بين يدي الله. القرآن يفتح الصفحة المحجوبة حتى لا تخدعك الصفحة الظاهرة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الطعام في الدنيا من أبرز صور النعمة، وخصوصاً لمن وصفوا قبل قليل بأنهم ﴿أُولِي النِّعْمَةِ﴾، ثم يصبح في الآخرة نفسه موضع غصة وعذاب. يا لهذا التقابل الخيف: تنعمُ هنا، وطعام ذو غصة هناك. وليست القضية أن كل متنعم مصيره كذلك، حاشا، وإنما الحديث عن الذين جمعوا النعم إلى التكذيب، فاستعملوا فسحة النعمة في الإعراض عن أنعم.

سُورَةُ الزَّمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

والغصة صورة شديدة القرب من التجربة البشرية؛ شيء يدخل موضع الحاجة ثم لا يستقيم مرورهِ، فيتحول ما كان ينبغي أن يكون غذاءً إلى ألم. وكأنَّ الجزءَ يحمل في صورته انقلاب الأشياء على من أساء علاقتها بالله: ما كان يتخذ سبباً للمتعة يصبح من جنس العذاب.

ثم يبلغ المشهد مدى أعظم: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً﴾.

هنا لا يعود الأمر متعلقاً بأفراد فحسب، بل بالكون الذي يقفون عليه.

الأرض التي نعتمد عليها في معنى الثبات ترجف.

والجبال التي صارت في الوعي البشري رمزاً للصلاية تهتز.

ثم لا تظل جبلاً بالمعنى الذي نعرفه؛ بل تصبح ﴿كَثِيبًا مَهِيلاً﴾، رملاً مجتمعاً رخواً متساقطاً لا يحتفظ بتماسكه القديم.

إن السورة تهدم هنا آخر أوهام الاستقرار.

فالإنسان يتعامل مع بعض الأشياء كأنها نهائية: الأرض تحت قدميه، والجبال حوله، والنظام الكوني الذي استيقظ عليه كل يوم منذ ولد. ومن شدة الاعتياد يتحول استمرار الكون في وعينا إلى شيء نكاد نمنحه صفة الأبد. ثم يأتي القرآن ليرينا اليوم الذي تفقد فيه أكثر الأشياء رسوخاً صورتها.

وإذا كانت الجبال نفسها لا تثبت لذلك اليوم، فبأي شيء من دون الله يطلب الإنسان ثباته المطلق؟

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

هذه الآية لا تريد أن تجعل الإنسان خائفاً من الأرض، وإنما أن تحرره من تأليه الثبات الأرضي. كل ما في الدنيا قابلٌ لأن يتغير؛ صحة، ومال، وقوة، وعلاقات، ودول، ومواقع، وأسماء. ومن بنى سكينته كلها على شيء متغير فقد وضع قلبه على أرض قابلة للرجفان.

لكن الذي تعلّم قبل قليل: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، يجد هنا سرّاً أعمق لذلك التوكل؛ فالله وحده لا تدخله التحولات التي تدخل خلقه، وهو سبحانه الباقي حين يفنى ما سواه، والقائم على كل شيء حين تهاوى الأشياء من صورها التي ألفناها.

إن القلب يحتاج أحياناً أن يتأمل القيامة لا ليهرب من الدنيا، بل ليضع الدنيا في حجمها الصحيح. كثير من محاولنا تكبر لأننا ننظر إليها من داخل اللحظة فقط؛ فإذا فتننا عليها نافذة الآخرة انخفض حجمها. من أغضبك اليوم سيموت وتموت، وما تنافست عليه سستركه ويتركك، وما حرمت منه هنا لن يكون ميزان كرامتك هناك، وما خسرت في سبيل الله لا يضيع عنده.

إن ذكر الآخرة ليس تعطيلاً للحياة، بل تصحيح لمقياسها.

ومن هنا نفهم لماذا جاءت هذه المشاهد بعد أمر النبي ﷺ بالصبر. كيف يصبر من يظن أن الدنيا هي المحكمة الأخيرة؟ وكيف يهجر حجراً جميلاً من يعتقد أن كل حق لم يأخذه بيده الآن قد ضاع إلى الأبد؟ إن الإيمان بالآخرة هو الذي يسمح للمظلوم أن يظل أخلاقياً، لأنه يعرف أن العدالة أكبر من قدرته الشخصية على الانتقام.

سُورَةُ الزُّمَرِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

الذي لا يؤمن إلا بما يقع أمام عينيه يجد صعوبة هائلة في ترك شيء لله، أما من يعلم أن هناك يوماً ترجف فيه الأرض والجبال، ويقوم فيه الناس لرب العالمين، فيستطيع أن يقول لقلبه حين تضيق به الخوصومة: ليس هذا آخر المشهد.

ومن هذا الباب يصبح ﴿وَأَخْرِجُهُمْ حِجْرًا جَمِيلًا﴾ أكثر قابلية للفهم؛ لأن الجمال في المهجر لا يصنعه برود الطبع، بل يصنعه اليقين بأن الله يرى، ويعلم، ويحكم. أنت لا تحتاج أن تلوث قلبك كي تثبت أنك كنت محقاً، ولا أن تتحول إلى نسخة من عدوك كي تأخذ حقك منه، لأن ثمة ميزاناً لا تضيق عنده ذرة.

ما أعجب هندسة السورة: أعطتك الليل كي يحتمل قلبك الكلام، وأعطتك القرآن كي تعرف الحقيقة، وأعطتك التبتل كي تتحرر من الناس، وأعطتك التوكل كي لا تحمل النتائج، ثم أمرتك بالصبر حين يؤذونك، وبالمهجر الجميل حين يصبح الاشتباك عبثاً، ثم قال لك في معنى مهيب: دع شأنهم لي، وبعد ذلك أراك الآخرة حتى تعرف لماذا تستطيع أن تدعهم له.

إن الصبر إذن ليس فضيلة يتيمة.

وراء الصبر توحيد.

ووراء المهجر الجميل يقين.

ووراء ترك الانتقام لله إيمانٌ بحكمة لم تفتح أبوابها بعد.

وهنا تكتشف أن من أعظم آثار قيام الليل أن الإنسان لا يعود محتاجاً إلى أن ينتصر لنفسه في كل موضع؛ فمن ذاق شيئاً من معنى الوقوف بين يدي الله يهون عليه شيء من الوقوف

سُورَةُ الْمَزْمِلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

أمام محكمة البشر، ومن عرف كيف يخلو بربه لم تعد كل عزلة يصنعها الناس عقوبةً له،
ومن عرف الوكيل لم يعد كل تهديد نهاية.

ولعل أجمل ما تفعله هذه الآيات في القلب أنها تنقله من سؤال: ماذا سأفعل بهم؟ إلى
سؤال: كيف أظل أنا كما يحب الله، مهما فعلوا؟

وهذا هو التحول الأعظم.

فليس أخطر ما يفعله بك عدوك أن يؤدي جسدك أو سمعتك، بل أن ينجح في إخراجك من
أخلاقك، أو أن يجعل الغضب يسرق منك الإنسان الذي كنت تريد أن تكونه لله.
لذلك كان الأمر:

﴿وَاصْبِرْ﴾.

ثم:

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

ثم:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثلاث درجات من التحرر: لا تنكسر بما يقولون، ولا تشبه بهم حين تبتعد عنهم، ولا تحمل
مصائبهم على ظهرك.

دع لله ما لله، وافعل أنت ما عليك.

ثم امض.

لكن السورة لم تنته بعد من كشف ذلك اليوم، فبعد أن رأينا الأرض والجبال وهي تفقد ثباتها، ستعود بنا الآيات إلى تاريخ البشر، لتضع أمام المكذبين مثلاً قديماً من سنن الرسالات: رسولاً أرسل إلى فرعون، ثم عصياناً، ثم أخذاً وبيلاً.

كأن القرآن يقول:

ما يجري الآن ليس أول مواجهة بين الوحي والغرور.

وليس الطغيان حادثة بلا سابقة.

والطريق الذي تسلكونه كانت له من قبل نهايات.

إذا كان فرعون بكل ملكه لم يستطع أن ينجو من الله، فبأي شيء يطمئن المكذب؟

الفصل الرابع

حين يستط سلطان الأرض أمام سلطان الآخرة

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۖ فَكَيْفَ نَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۖ السَّمَاءُ مِنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۖ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

بعد أن رأينا الأرض ترجف والجبال تتحول من رمزٍ للثبات إلى كئيبي مهيل، تعود السورة من مشهد المستقبل إلى ذاكرة التاريخ، ولكنها لا تعود لتروي حكاية قديمة يُستأنس بسماعها، بل لتضع المكذبين أمام قانونٍ يتكرر كلما ظن الإنسان أن القوة تستطيع أن تلغي الحقيقة؛ فالمشهد الذي يجري في مكة ليس حادثةً بلا جذور، ومحاولة إسكات الرسول ﷺ ليست أول مرة يقف فيها سلطان الأرض في وجه رسالة السماء، ولذلك يأتي الخطاب: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾.

إن أول ما يلفت القلب هنا كلمة ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ فالرسول لم يأت من تلقاء نفسه، ولم يخترع لنفسه مهمة ثم طلب من الناس أن يتبعوه، وإنما وراء إرادة الله وأمره ووجهه، ولذلك فإن الموقف منه ليس مجرد موقف من رجلٍ يتكلم، بل موقف من الرسالة التي أرسله الله بها. وهذه الحقيقة هي التي تمنح الدعوة ثباتها حين تقل أدواتها؛ إذ قد يبدو الرسول في ميزان البشر فرداً تحيط به قوى كثيرة، لكن ميزان الوحي يراه مبعوثاً من رب العالمين، والفرق بين الصورتين هو الفرق بين أن تنظر إلى الطريق من الأرض أو تنظر إليه في ضوء السماء.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

﴿رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ والرسالة هنا ليست خبراً يمر على الإنسان ثم تنتهي مسؤوليته، بل حجة تقوم، وشهادة تُشكل، ومسؤولية تُنشأ من لحظة وصول الحق. فالرسول ﷺ شاهد بما بلغ، وشهادته يوم القيامة تكشف أن الإنسان لم يكن متروكاً في ظلامٍ لم يأت فيه بيان، وإنما جاءه النور ثم صار موقفه من النور جزءاً من قصته. وهذه من الحقائق التي ترد القرآن من مجال الثقافة إلى مجال المصير، فالوحي ليس كتاباً نعرف عنه شيئاً ثم نستأنف الحياة كأن معرفتنا به لم تضيف إلينا تكليفاً، بل كل ما عرفت من الحق صار أمانةً في عنقك، وكل نور دخل قلبك زاد مسؤوليتك أن تمشي به.

ثم يقول سبحانه: ﴿كَأَآرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾، وغفأة يقف فرعون في المشهد. وليس اختيار فرعون عابراً؛ فهو الاسم الذي ارتبط في الوعي القرآني بأقصى صور الاستعلاء الأرضي، رجلٌ لم يكتف بأن يملك أو يحكم، بل تجاوز حدود العبودية حتى نازع في مقام الربوبية بلسان الطغيان. وإذا كان ثمة نموذج يمكن أن يوهم صاحبه أنه أكبر من أن يناله الحساب، فهو فرعون؛ ملكٌ، وجندٌ، وسلطانٌ، وأرضٌ تجري الأنهار من تحته، وجمهورٌ مستضعف يراه من قاع القوة، ومع ذلك لم تستطع هذه كلها أن تغير حقيقةً واحدة: أنه عبدٌ في ملك الله، وأنه مهما ارتفع في أعين الناس لا يستطيع أن يخرج من سلطان ربه.

إن القرآن حين يستحضر فرعون أمام مكدي محمد ﷺ لا يقول لهم فقط: قد كذب قوم قبلكم، بل يضع أمام غرور القوة مرآته الأخيرة؛ إذا كان ذلك الذي بلغ من السلطان ما بلغ لم يستطع أن يحمي نفسه حين جاء أمر الله، فما الذي يمنح غيره حصانةً من المصير؟ إن

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

التاريخ في القرآن ليس متحفاً للأحداث، بل محكمة للمفاهيم؛ يريك النهاية حتى لا تتخددع بالبدايات، ويأخذك إلى سقوط المتكبر حتى لا تفتن بساعة صعوده.

﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾؛ هكذا تختصر الآية عالماً كاملاً في كلمة: عصى. وراء هذه الكلمة قصرٌ وجيشٌ ومجلسٌ وملاًٌ ومجادلاتٌ وسحرٌ وتهديدٌ واستتجارٌ، لكن القرآن حين يضع الحدث في ميزان الحقيقة يسقط الزينة كلها ويبقي جوهره: عبدٌ عصى رسول ربه. وما أكثر الأشياء التي تبدو معقدة حين ننظر إليها من الداخل، ثم تصبح بسيطة جداً حين يزنها الوحي؛ قد يصنع الإنسان حول معصيته فلسفةً كاملة، وقيم لها مبرراتٍ سياسية واجتماعيةً ونفسيةً، لكن الحقيقة في النهاية قد تكون أقل زخرفةً من كل ذلك: عرف أمر الله ثم اختار خلافه.

وهذا من أشد أدواء النفس: أنها تحسن تسمية عصيانها بأسماء ألطف. تسمي الجبن حكمة، والكبر كرامة، والطمع طموحاً، والتعلق بالأسباب واقعيةً، والتنازل عن الحق مرونةً، حتى يفقد الإنسان القدرة على رؤية فعله كما هو. والقرآن يعيد للأشياء أسماءها؛ لأن بداية التوبة أن تسقط عن الخطأ زينته اللفظية، وأن تقف أمامه عارياً من الأعذار التي صنعتها له.

ثم لا تفصل الآية طويلاً بين العصيان ومآله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

يا له من انتقال مهيب: كان فرعون هو الذي يأخذ الناس، ثم صار هو المأخوذ.

كان يأمر فيطاع، ويهدد فيترعد من حوله، ويملك أن يقول لمن خالفه إنه سيقطع الأيدي والأرجل، ثم جاءت لحظة لم يعد فيها الآخذ بل صار مأخوذاً. وهنا يكشف القرآن الوهم

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُبَيِّتُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

المستتر في كل طغيان: الطاغية يشعر أن قدرته على الناس قدرةً أصلية، وينسى أن كل قوته مستعارة، وأن اليد التي تمسك غيرها واقعةً أصلاً تحت قبضة الله، وأن الوقت الذي يمهل فيه ليس ملكاً له، بل قدرٌ يجري عليه كما يجري على من ظلمه.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ أخذاً شديداً ثقیلاً العاقبة. واللفظ نفسه يحمل رهبة النهاية، كأن سنوات الاستعلاء كلها تنضغط في لحظة حساب واحدة. وليس المراد أن يعيش المؤمن متشفياً بانتظار سقوط الناس، فالسورة نفسها رتبته قبل ذلك على الهجر الجميل، وإنما المراد ألا يضطرب ميزانه حين يرى الباطل متماسكاً زمناً؛ فتماسك الظلم ليس دليلاً على بقاءه، وتأخر الأخذ ليس دليلاً على الغفلة، والمهلة التي يراها الطاغية فضاءً لزيادة قوته قد تكون هي نفسها المساحة التي يستكمل فيها حجته على نفسه.

وما أكثر ما يبني الإنسان فهم الإهمال. إذا جاءت العقوبة مباشرةً فهم، وإذا تأخرت توهم أن الأمر قد نسي. أما القرآن فيعلم القلب أن الله سنناً لا تضبطها عجلة البشر، وأن بين الذنب والعاقبة مسافةً قد تطول في حسابنا ولا تخرج لحظةً عن علم الله. لقد أمهل فرعون حتى قال ما قال وفعل ما فعل، ثم لم يمنحه مجموع سلطانه دقيقة نجاة حين جاء الأخذ.

ومن هنا تنتقل السورة من فرعون إلى المخاطبين جميعاً: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾.

هذا السؤال ليس بحثاً عن جواب، بل يهدم إمكان النجاة الوهمية: كيف ستحمون أنفسكم إن بقيتم على الكفر من يوم تبلغ شدته مبلغاً تصفه الآية بهذه الصورة الهائلة؟ والقرآن لا يقول إن الولدان يشيبون بسبب مرور الزمن، فالطفل هو الطرف الأبعد عن الشيب، وإنما

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

يرسم من شدة ذلك اليوم صورةً تتقلب معها المقاييس؛ حتى من لم يبلغ سن الشيب تصوره الأوهال كأنها عجّلت فيه أثر السنين.

﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾؛ إن الآخرة هنا لا تقدم في لغة باردة، وإنما تدخل إلى الحس. فالإنسان قد يسمع عبارة «يوم شديد» مرات كثيرة حتى تصبح مألوفاً، لكن حين يرى في التصوير القرآني طفولةً يعلوها الشيب من هول المشهد، يتحول المجرد إلى صورة. وهكذا يصنع القرآن بالوجدان ما لا تصنعه العبارة النظرية وحدها؛ يوقظ الخيال لا ليطلقه خارج الحقيقة، بل ليجعله يدرك من عظمة الحقيقة ما تعجز عنه الأرقام.

والعجيب أن السورة بدأت بالليل الهادئ، بإنسانٍ متزمل في ثوبه، ثم قادتنا تدريجياً إلى يومٍ تشيب فيه الولدان. بين المشهدين مسافةٌ هائلة في الظاهر، لكنها من أعظم أسرار البناء؛ فالذي يقوم في هدوء الليل إنما يستعد في الحقيقة لذلك اليوم. وكل سجدة خفية هي عملٌ في ملف المستقبل، وكل آيةٍ ترتلها الآن بطمأنينة ستكون من النور الذي تحتاجه حين لا يبقى من طمأنينة الدنيا شيء.

إن العبادة تبدو في لحظتها صغيرة جداً: ركعات في غرفة، دمعة لا يراها أحد، تلاوة بصوت منخفض، استغفار بينك وبين الله؛ لكن السورة تضع هذه الأعمال الصغيرة في مواجهة يومٍ كوني هائل، فتكتشف أن أهدأ أعمال حياتك قد تكون أكثرها صلةً بأعظم أيام وجودك. وهذا من انقلاب المقاييس القرآني: الناس يرون ما يحدث في الأسواق والقصور والسياسة أحداثاً كبيرة، ويرون ركعتين في آخر الليل أمراً هامشياً، لكن ميزان الآخرة قد يكشف أن تلك الركعتين كانتا من أهم ما جرى لك في تلك الليلة.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ثمَّ يزداد المشهد اتساعاً: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾.

بعد الأرض والجبال، السماء نفسها تدخل في التحول.

ذلك السقف الهائل الذي يرفع الإنسان إليه بصره فيراه رمزاً للاتساع والاستقرار، ينفطر في ذلك اليوم. إن القيامة ليست تعديلاً صغيراً داخل العالم الذي نعرفه؛ إنها تصدع نظام هذا العالم كله. الأرض ليست الأرض التي اعتدناها، والجبال ليست الجبال، والسماء ليست السماء في هيئتها المألوفة. كل البنية التي علّق الإنسان عليها شعوره بالاستقرار تدخل أمراً جديداً.

ولعل هذا من أعمق ما يحجر القلب من عبادة الدنيا؛ فالدنيا ليست فقط فانية لأنك سموت وتركها، بل نظامها نفسه موعودٌ بالتبدل. أنت لا تغادر بيتاً خالداً ليأتي غيرك ويسكنه إلى الأبد؛ البيت الكوني كله له أجل. الحضارات تنتهي، والأجيال تنتهي، ثم يأتي يوم ينتهي فيه الشكل الذي عرفناه للأرض والسماء.

فكيف يليق بإنسان يعرف هذا أن يبني كل معنى وجوده على شيء يعلم الله أنه زائل؟

وكيف يجعل رأي الناس فيه قضيته الكبرى، والناس أنفسهم ذاهبون؟

وكيف يبيع آخرته من أجل مرحلة قصيرة في عالم كتب الله على بنيته نفسها التحول؟

هذه ليست دعوةً لاحتقار الدنيا؛ فالقرآن هو نفسه الذي كلف الإنسان أن يعمل ويعمر ويعدل ويحسن، وإنما هي دعوةٌ إلى وضع الدنيا في موضعها الصحيح: ميدانٌ للأمانة، لا وطنٌ للخلود؛ طريقٌ إلى الله، لا بديلٌ عنه؛ نعمةٌ تُشكر، لا إلهٌ يُعبد.

ثم تأتي الجملة التي تسند كل هذه الصور إلى حقيقة لا احتمال فيها: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾. هنا يتوقف القلب.

ليس الأمر تخويفاً بلاغياً قد يقع وقد لا يقع، وليس صورةً أدبيةً هدفها مجرد التأثير، إنه وعد الله، ووعد الله مفعول.

إن أكثر ما يغير الإنسان ليس معرفته بأن شيئاً ممكن، بل يقينه بأنه واقع. إذا أخبرك أحد أن سفرًا قد يحدث رتبت نفسك له على قدر الاحتمال، أما إذا صار السفر مؤكدًا فقد بدأت تجمع متاعك. والقرآن يريد أن ينقل الآخرة في القلب من خانة الفكرة الدينية المعروفة إلى خانة الموعد المحقق.

﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾؛ هذه الجملة إذا استقرت حقًا في القلب أعادت ترتيب العمر كله. فالإنسان يرجل التوبة لأنه يتعامل مع الآخرة كأنها بعيدة على نحو يسمح بالتأجيل، ويتوسع في الخصومات لأنه ينسى الموقف الذي سيجمعه بخضمه أمام الله، ويتعلق بالمال لأنه يشعر في أعماقه كأن هذا النظام سيستمر طويلاً، ويحزن على فوات الدنيا حزناً مفرطاً لأنه يقيس نفسه بلحظة لا بمصير.

أما إذا صار وعد الله «مفعولاً» في الوعي، فإن الزمن نفسه يتغير. يصبح اليوم فرصة، والذنب خطراً، والطاعة ذخيرة، والمظلمة حملاً، والقلب أرضاً ينبغي إصلاحها قبل الوصول. ليس خوفاً يشل الحياة، بل يقظة تمنع الحياة من أن تتحول إلى غفلة مزمنة.

ثم، بعد كل هذا الرعب الكوني، تأتي آية غاية في الرحمة: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ﴾.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

لم تعرض السورة هذه المشاهد لتغلق الطريق، بل لتفتحه.

لم تذكر فرعون ليقال للإنسان إن الهلاك حتمي، بل ليعرف طريق الهلاك فيتجنبه.

ولم تصف اليوم الذي يشيب له الولدان لتدفع القلب إلى اليأس، بل لتوقظه قبل أن يصل إلى ذلك اليوم.

إنها ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾؛ أي أن باب الاستجابة ما يزال مفتوحاً الآن. وهذه من رحمة الإنذار في القرآن: أن الله يخبرك بالخطر وأنت لا تزال قادراً على تغيير الطريق. فلو لم يخبرك حتى يقع المصير لما كان الإنذار رحمة، أما أن يكشف لك النهاية قبل أن تصل إليها، وأن يصف لك الطريقين وأنت لا تزال تملك الاختيار، فهذا من أوسع أبواب الإحسان.

التذكرة لا تخلق الحقيقة، بل تزيل عنها غبار النسيان. والإنسان في التصور القرآني يعاني كثيراً من النسيان لا من انعدام المعرفة وحده؛ يعرف أنه سيموت، لكنه يعيش ساعات طويلة وكأنه لن يموت؛ يعرف أن الله يراه، ثم يتصرف في لحظة شهوة كأنه غائب عن الرؤية؛ يعرف أن المال يتركه، ثم يتعلق به كأنه سيعمله عبر القبر. ولذلك يحتاج إلى تذكرة لا مرة واحدة، بل مراراً، لأن غبار الدنيا سريع التراكم على القلب.

وقد يكون القرآن كله في جانبٍ من أثره عملية استردادٍ للحقيقة من النسيان. لا يقول لك دائماً شيئاً لم تسمع به قط، بل يجعل ما تعرفه حاضراً بالقدر الذي يصبح مؤثراً. فالفرق شاسع بين أن تعرف الموت، وأن تذكر الموت؛ وبين أن تعرف أن الله رزاق، وأن تدخل

سُورَةُ الْمَزْمِلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

أزمة مالية وأنت ذاكر أنه رزاق؛ وبين أن تعرف الآخرة، وأن تقع أمامك شهوة ثم تستحضر في لحظة القرار أنك ماضٍ إلى الله.

ثم تختم هذه الوحدة العظيمة بوحدة من أرق وأعرق عبارات السورة: ﴿قَنَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

سبحان الله؛ بعد الجبال المتهاوية، والسماء المنفطرة، وفرعون المأخوذ، والولدان الذين يشيرون، لا تنتهي الآيات ببابٍ مغلق، وإنما بسبيل. الطريق ما يزال موجوداً.

وما دام الإنسان حياً، فينبه وبين ربه سبيل.

قد يكون وراءه عمرٌ من الغفلة، لكن أمامه سبيل.

وقد تكون أثقلت ظهره الذنوب، لكن أمامه سبيل.

وقد تشعبت به الدروب حتى نسي نفسه، لكن أمامه سبيل.

القرآن لا يعرفك بالخطر ثم يتركك واقفاً أمامه عاجزاً؛ إنه يقول لك: تستطيع أن تتخذ طريقاً إلى ربك.

وتأمل قوله: ﴿إِلَى رَبِّهِ﴾.

لم يقل إلى النجاة وحدها، ولا إلى الجنة فحسب، مع عظمتهما؛ بل إلى ربه. فالغاية الكبرى ليست مجرد الإفلات من العذاب، وإنما الوصول إلى رضوان الله والقرب منه بالعبودية.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وهذا يعيد التذكير بالاسم الذي كان حاضراً منذ منتصف السورة: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، ثم هنا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾. كأن السورة من أولها إلى هنا تعلم الإنسان أن حركته كلها ليست ابتعاداً عن العقاب فحسب، بل عودةً إلى الرب.

والسبيل إلى الله ليس فكرةً نظرية؛ لقد رسمت السورة معالمه قبل أن تسميه: قم، ورتل، واذكر، وتبتل، وتوكل، واصبر، واهجر جيلاً، واستحضر الآخرة. هذه ليست وصايا متفرقة، بل أجزاء الطريق. إنك لا تصل إلى الله بقفزة عاطفية واحدة، وإنما تسلك سبيلاً، والسبيل فيه خطوات وتكرار وتعب وتعثر ونهوض، لكنه يظل مفتوحاً لمن صدق.

وقوله: ﴿فَنَنْشَاءُ﴾ يضع الإنسان أمام مسؤوليته. لقد جاء البيان، وقامت التذكرة، وظهر الطريق؛ وما بعد ذلك لا يصنعه أحد عنك. يمكن للناس أن يدعوك، ويمكن للكاتب أن يوقظك، ويمكن للموعظة أن تهز قلبك، لكن لحظة اتخاذ السبيل لا بد أن تحدث في إرادتك أنت. هناك منطقة في العلاقة مع الله لا يدخلها أحد نيابةً عنك؛ لا يستطيع أحب الناس إليك أن يصلي بقلبك، ولا أن يتوب بإرادتك، ولا أن يصدق مكانك.

ولعل هذه من أكثر حقائق الهداية رهبةً وجمالاً: الطريق إلى الله عام، ولكن السير فردي.

يمكن أن تمشي في جماعة، لكن لك قلبك.

ويمكن أن نتعلم من عالم، لكن لك استجابتك.

ويمكن أن تحب صالحاً، لكن لن تنجو بصلاحه وحده.

كل إنسان لا بد أن تكون له خطوة يضعها بنفسه في السبيل.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وإذا تأملنا السورة منذ بدايتها حتى هذه الآية، رأينا انتقالاً باهراً في معنى الحركة. بدأت بـ﴿قُمْ﴾، ثم جاء ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾، ثم ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾، ثم انتهينا إلى ﴿اتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾. كأن السورة كلها حركة؛ ليست روحانية السكون الميت، وإنما روحانية السير. حتى الليل الذي يسكن فيه الناس، يريدك القرآن فيه قائماً. وحتى التبتل الذي قد يتوهم أنه انسحاب، يجعله الوحي جزءاً من إعدادك للنهار. وحتى مشاهد القيامة لا يراد منها تجميدك بالخوف، بل دفعك إلى الطريق.

إن الإيمان في سورة المزمّل ليس مكاناً تجلس فيه.
إنه سبيل تمشيّه.

والمؤمن ليس من عرف أين الطريق فقط، بل من اتخذه.

وهنا تبدو كلمة ﴿اتَّخِذْ﴾ بالغة الدقة؛ فالطريق إلى الله ينبغي أن يصبح قراراً، لا خاطراً موسمياً. كم من إنسان يشعر بموعظة عظيمة ثم لا «يتخذ» شيئاً، يتأثر، ويبكي، ويعزم، ثم يعود إلى الموضع نفسه لأن التأثير لم يتحول إلى سبيل. إن أجمل المشاعر الدينية قد تذبل إذا لم تجد قدماً تمشي بها.

فما السبيل الذي اتخذته فعلاً؟

ما الشيء الذي تغير في وقتك؟

ما العبادة التي أصبحت ثابتة؟

ما الذنب الذي بدأت حرك معه؟

سورة المزمل | حين يهيئ الله قلب الرسالة

ما المظلمة التي رددتها؟

ما العلاقة التي أصلحتها؟

ما النصيب الذي صار للقرآن من ليلك أو نهارك؟

فهذه الأسئلة هي التي تنقل «التذكرة» من الكلام إلى الطريق.

ثم يحدث في السورة ما يشبه العودة إلى البداية، ولكن بعد رحلة طويلة.

لقد بدأنا بالليل وقيام الليل، ومررنا بالقول الثقيل والنهار والذكر والتوكل والصبر والآخرة والتاريخ وفرعون والقيامة والطريق إلى الله.

ثم تأتي الآية الأخيرة، أطول آيات السورة، فتعود إلى الليل من جديد.

لكنها لا تعود إليه بالطريقة نفسها.

في البداية كان هناك أمرٌ شديد يبنى الجيل الأول على القيام.

وفي النهاية يأتي علم الله بالضعف، والمرض، والسفر، والجهد، وتقلب الأحوال، ثم تنزل كلمة الرحمة التي كأنها تربت على أكف الذين حاولوا أن يقوموا فلم يطبقوا المقدار الأول:

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

وهنا سيكتمل أحد أجمل أسرار سورة المزمل:

أن الله الذي قال في أولها: قم، هو نفسه الذي قال في آخرها: ما تيسر.

سُورَةُ الْمَزْمِلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قُلُوبَ الرِّسَالَةِ

وبين الأمرين تتجلى تربية القرآن كلها؛ عزمٌ لا يترك الإنسان مدلاً، ورحمةٌ لا تتركه مكسوراً.

الفصل الخامس

حين يخفف الله عن السائرين ولا يغلق الطريق

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ۚ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَءُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

تعود السورة في آيتها الأخيرة إلى الليل الذي بدأت منه، ولكن القلب الذي يعود إليها الآن ليس القلب نفسه الذي دخل من باب ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾؛ فقد مرّ خلال السورة بمدرسة كاملة: قام، ورتل، واستعد للقول الثقيل، وذاق معنى ناشئة الليل، وعرف سبج النهار، وذكر ربه، وتبتل إليه، واتخذته وكيلًا، وصبر على أذى الناس، وهجر هجرًا جميلًا، ورأى الطغيان في مرآة فرعون، ووقف بقلبه أمام رجفان الأرض وانفطار السماء، ثم سمع أن الطريق إلى الله ما يزال مفتوحًا. والآن تأتي الآية الأخيرة لا لتلغي ما سبق، بل لتكشف وجهًا آخر من وجوه التربية الإلهية: أن الله الذي يربي عباده بالعزم لا يجهل ضعفهم، والذي يدعوهم إلى المعالي لا يطالبهم بما لا يطيقون، والذي يأخذ بأيديهم إلى القيام يعلم

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

مَتَى نَتْعَبُ الْأَقْدَامَ، وَمَتَى يَمْرُضُ الْجَسَدَ، وَمَتَى يَضْرِبُ الْإِنْسَانُ فِي الْأَرْضِ، وَمَتَى تَسْتَدْعِي الرِّسَالَةَ نَفْسُهَا خُرُوجًا آخَرَ لَا يُسَمَحُ لَهُ بِطَوْلِ الْقِيَامِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾.

لَعَلَّ هَذِهِ مِنْ أَرْقِ كَلِمَاتِ السُّورَةِ كُلِّهَا.

بَعْدَ الْأَوَامِرِ، وَبَعْدَ الْأَثْقَالِ، وَبَعْدَ قِيَامِ اللَّيْلِ، يَأْتِي الْعِلْمُ قَبْلَ التَّخْفِيفِ.

رَبِّكَ يَعْلَمُ.

يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ.

يَعْلَمُ مَقْدَارَ مَا تَقُومُ.

يَعْلَمُ أَنَّكَ حَاوَلْتَ.

يَعْلَمُ أَنَّ مَعَكَ طَائِفَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَقُومُ.

يَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَحْصُوا اللَّيْلَ عَلَى الدَّوَامِ إِحَاطَةً لَا تَحْتَلِ.

يَعْلَمُ الْمَرَضَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ.

وَيَعْلَمُ السَّفَرَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ.

وَيَعْلَمُ السَّعْيَ فِي الرِّزْقِ.

وَيَعْلَمُ الْقِتَالَ فِي سَبِيلِهِ.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ويعلم الجسد الذي سيضعف، والعمر الذي ستتقلب به الأحوال، والإنسان الذي سيحاول أن يظل قريباً ثم تتغير حوله ظروف الحياة.

ليس التخفيف هنا صادراً عن جهلٍ سابقٍ بالمشقة، تعالى الله عن ذلك؛ وإنما هو تشريعٌ من العليم الحكيم الرحيم، يظهر للعباد أن الطريق الذي أمرهم بسلوكه ليس طريقاً صُمم لكائنات لا تعب، بل لبشرٍ يعرف خالقهم ما أودع فيهم من القوة والضعف. وهذا وحده يعيد صياغة علاقتنا بالعبادة.

فإن كثيراً من الناس إذا عجز عن مرتبةٍ عالية ظن أن كل الطريق قد انغلق في وجهه، وإذا لم يستطع أن يؤدي الطاعة على الصورة التي كان يفعلها في زمن القوة شعر أن علاقته بالله قد انتهت، وإذا مرّ بمرضٍ أو إرهاقٍ أو سفرٍ أو ضيقٍ جعل من نقصان العمل دليلاً على نقصان القرب. أما هذه الآية فتعلمه معنى أكثر نضجاً: الله لا ينظر إلى الإنسان بمعيّارٍ واحد جامد لا يراعي تحولات حاله، وإنما يعلم حقيقة عبده، ويعلم ماذا يستطيع الآن، وما الذي منعه، وما الذي بقي في قلبه من صدق.

﴿أَنْتَ تَقُومُ أَذْنَى مِنْ ثُلثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلْثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾؛ يا لهذا المشهد المهيّب: نبيُّ ﷺ يقوم، وأصحابٌ يقومون معه، وليلاً طويلاً يقتطع منه نصيبٌ لله، لا ليعون الناس ولا لتأنيجٍ يريد صاحبه أن يسجل فيه بطولة. إنها الجماعة الأولى وهي تُبنى في الظلام قبل أن تراها الأمم في الضوء. وربما كان من أسرار قوة ذلك الجيل أن له حياةً غير مرئية لم تكن تعرفها مكة كلها؛ كانوا يدخلون في النهار ضعفاء في ميزان القوة الظاهرة، لكن لهم ليلٌ يعرفه الله.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وتأمل أن الله أثبت فعلهم قبل أن يخفف عنهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾. لم يقل لهم: عجزتم، بل ذكر قيامهم أولاً، وكأن الرحمة لا تحو قيمة المجاهدة التي سبقتها. إن الله لا ينسى البدايات الشاقة حين يفتح بعد ذلك باب التيسير؛ كل خطوة مشيتها إليه في وقت القدرة محفوظة، وكل ليلة جاهدت فيها عينيك وجسدك معلومة، وكل قراءة ثقلت على النفس ثم أتممتها لا تضيع.

وهذا يعلمنا شيئاً عظيماً عن ربنا سبحانه: أنه يرى الجهد قبل النتيجة.

قد لا تصل إلى الصورة التي تمنيتها، لكن الله يعلم مقدار ما قاومت.

قد لا تبلغ من العبادة ما بلغ غيرك، لكن الله يعلم مرضاً لم يره الناس، وحملاً داخلياً لم يشعروا به، وظرفاً لا يعرف تفاصيله إلا هو.

ومع أن التكليف لا يبني على العواطف وحدها، فإن هذه الحقيقة تمنح القلب عدلاً عجيباً:

لست في محكمة الناس التي لا ترى إلا الظاهر؛ أنت عبدٌ لرب يعلم.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

هذه الجملة تعيد الإنسان إلى حجمه مرةً أخرى. نحن نحاول حساب الوقت، لكن الذي خلق الوقت وقدره هو الله. الليل الذي تقوم جزءاً منه ليس ملكك، والنهار الذي تسبح فيه ليس ملكك، والدقائق التي تتكاثر على ساعاتك ليست مادةً محايدة؛ كلها مخلوقةٌ مقدرة. ومن هنا تصبح العبادة نوعاً من إعادة الزمن إلى مالكة؛ فأنت لا «تعطي» الله ساعةً من وقتك بمعنى

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

الاستقلال، لأن الوقت كله أصله منه، ولكنك تشكر المنعم بأن تجعل بعض ما وهبك طريقاً إليه.

و﴿يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ تحمل القلب على التواضع أمام محدوديته؛ فالإنسان مهما دق حسابه يبقى تحت تقلبات خلقها الله: طول ليل وقصره، اختلاف المواسم، مرض وصحة، سفر وإقامة، قوة وضعف. ولذلك تأتي بعدها مباشرة: ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنَا تَحْصُوهَ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾.

والتعبير ب﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هنا من أوسع أبواب الرحمة؛ أي رجع بكم إلى التخفيف، ورفع عنكم الحرج في تقدير ذلك القيام على الصورة الأولى. وليس في هذا إدانة لمن قام، بل إكمال للتربية؛ لأن الله لا يريد من العبادة أن تتحول إلى آلة لسحق العبد. بدأ بالعزم ليصنع القوة، ثم شرع التيسير ليصون الاستمرار.

وهنا تظهر قاعدة من أعظم قواعد السير إلى الله: ليس كل تخفيف تراجعاً.

قد يكون التخفيف نفسه من تمام الطاعة.

قد يكون أن تنتقل من الكثير المنقطع إلى القليل الدائم أقرب إلى الحكمة.

وقد يكون من الصدق أن تعرف طاقتك بدل أن ترفع شعاراً أعلى منها ثم تنكسر بعد أيام.

والإنسان في بداياته يحب غالباً الأعمال الكبيرة لأنها تمنحه إحساساً سريعاً بالتغير، لكن التربية القرآنية تهتم بما يبقى. ليست القضية كم اندفعت أول الطريق، بل هل ستظل تمشي.

ثم تأتي العبارة التي ستكرر في الآية مرتين، كأن الرحمة تريد أن تُسمع بوضوح: ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾.

ما أوسع هذه الجملة.

لم يقل: فإذا لم تقدروا على القدر الأول فاتركوا.

بل قال: ما تيسر.

إن الله لا يريد منك أن تجعل عجزك عن الكمال ذريعةً لترك الممكن.

وهذه من أدق أمراض النفس: إما الكثير وإما لا شيء.. إن لم أقم ساعةً فلن أقوم عشر دقائق. إن لم أقرأ جزءاً فلن أفتح المصحف. إن لم أستطع مشروعاً كبيراً فلن أبدأ بالخطوة الصغيرة. إن لم أبلغ خشوع الصالحين فلا معنى لعبادتي. وهذه النفسية تبدو عالية الطموح، لكنها كثيراً ما تكون باباً خفياً للانقطاع.

أما القرآن فيؤسس لمنهج مختلف: افعل ما تيسر، ولكن لا تقطع الصلة.

اقرأ ما تيسر.

قم ما تيسر.

تقدم بما تيسر.

إن لم تستطع أن تأتي إلى الله بخطواتك الواسعة، فلا تحرم نفسك منه لأنك لا تملك إلا خطوتين.

هذه العبارة تحفظ خيط العلاقة بين العبد وربّه من الانقطاع في أوقات الضعف. فالطريق إلى الله لا يطلب منك دائماً السرعة نفسها، لكنه يريدك أن تبقى في الطريق. قد تتباطأ حين

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

تمرض، وقد يقل وردك حين يسافر بك العمل، وقد تتغير طاقتك مع العمر، لكن المشكلة ليست في نقصان السرعة؛ المشكلة أن تجعل النقصان سبباً للخروج من الطريق.

ثم يشرح العليم الرحيم بعض الأحوال التي ستدخل على هذه الجماعة وعلى الأمة من بعدها:

﴿عَلَّمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضًى﴾.

المرض.

ذلك الحدث الذي يضع الإنسان فجأةً أمام حقيقة جسده؛ الجسد الذي كان يطيعك لا يطيع، والوقت الذي كنت تملؤه بالفعل يصبح ممتلئاً بالانتظار، والطاعة التي كنت تفعلها بسهولة تصبح ثقيلةً أو متعذرة. والقرآن لا يتعامل مع المرض باعتباره خلاً خارج الحساب؛ الله يعلم أنه سيكون منكم مرضى. هذا جزءٌ معلوم من الرحلة البشرية، لا استثناءً لم يدخل في رحمة التشريع.

وفي هذه الكلمة عزاء لكل من أحنه أن ضعفه الجسدي قلل عمله؛ فإن الله الذي شرع العبادة هو نفسه الذي علم المرض، ومن علم المرض لا يطالب المريض كما يطالب الصحيح في كل هيئة. إن علاقتك بالله ليست صفقةً ميكانيكيةً ترتفع فيها قيمتك كلما كثرت حركاتك، بل عبوديةٌ يدخل فيها الصدق والنية والاستطاعة والتسليم.

ثم يقول: ﴿وَأَخْرَوْا يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾.

ما أجل أن يدخل طلب الرزق في قلب هذه الآية التي بدأت بقيام الليل.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يُبْعِثُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

كأن القرآن يريد أن يمنعنا من صناعة خصومة زائفة بين العبادة والحياة؛ فالذين يسافرون ويعملون ويطلبون فضل الله لهم وضعهم المحسوب في ميزان التخفيف. العمل المشروع ليس خيانةً للمحارب، والبحث عن الرزق ليس دائماً انشغلاً مذموماً عن الله؛ بل قد يكون نفسه عبادةً إذا استقام قصده وطريقه.

والتعبير بـ ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ يعيد الاقتصاد كله إلى التوحيد؛ أنت تعمل بيدك، وتسافر، وتبيع، وتشترى، وتعلم، وتخطط، لكنك لا تنسى أن ما تحصل عليه في النهاية من فضل الله. الأسباب حقيقية، والعمل مطلوب، غير أن السبب ليس رباً، والسوق لا يرزق بذاته، والوظيفة لا تخلق الأمان، وإنما الله يفتح من فضله عبر ما شاء من الأسباب.

ثم يأتي صنف ثالث: ﴿وآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وهنا تكتمل صورة الحياة الواسعة التي خرجت إليها الجماعة المؤمنة. في أول السورة كان المشهد غرفةً وليلاً وقياماً، وفي آخرها صار لدينا مرض، وأسفار، وطلب رزق، وقتال في سبيل الله. لقد اتسعت الحياة، لكن الصلة بالقرآن لم تسقط؛ ولذلك تأتي العبارة مرةً أخرى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

هذه الثانية كأنها تقول: مهما اتسع الخارج، لا تدع الداخل يخلو.

مرضت؟ ما تيسر.

سافرت؟ ما تيسر.

انشغلت بطلب الرزق؟ ما تيسر.

دخلت ميادين الجهد والمواجهة؟ ما تيسر.

القرآن لا يشترط عليك دائماً الكم نفسه، لكنه لا يريد أن يصبح غائباً من بناء حياتك.

وهذه من أعجب معادلات السورة: التيسير ليس إذناً بالهجر.

بل ربما كان معنى الرحمة هنا أن يبقى لك حد أدنى من الوصل في كل الأحوال. لأن الإنسان إذا قطع الصلة تماماً بحجة الظرف، ربما صار الظرف باباً للتيه، أما «ما تيسر» فهي الحبل الذي لا يتركه حتى وهو يعبر مرحلة ضيقة.

وتأمل كيف أن السورة بدأت بـ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾، وانتهت بـ﴿فَاقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾. البداية تملك كيف تعطي القرآن حضوره الكامل، والنهاية تملك ألا تقطعه حين لا تقدر على ذلك الحضور الكامل. بين الآيتين تربةً رفيعة: في أوقات السعة، اعط الوحي من قلبك وزمانك الكثير؛ وفي أوقات العجز، لا تحرم نفسك من القليل.

ثم لا تجعل السورة الدين قرأناً يتلى فقط، بل تجمع أركاناً من حياة العبودية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

إقامة الصلاة غير مجرد أدائها؛ فيها معنى الإقامة والثبات والعناية، كأن الصلاة عمودٌ يريد القرآن أن يظل قائماً وسط تغير الأيام. قد تبدل أعمال الإنسان وأمكنته وظروفه، لكن ثمة مواقيت تعيد ترتيب يومه حول الله. وفي هذا سر لا يشعر به إلا من فكر فيه: الصلاة تمنع الزمن من أن يصبح ملكاً كاملاً للعالم. مهما انشغلت، يأتي الأذان ليقول لك إن في يومك حقاً ليس للسوق ولا للعمل ولا للناس.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ثم ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ فالسورة التي بدأت في عمق الليل لا تنتهي بعلاقة فردية منعزلة بين الإنسان وربه، بل تخرج بالعبادة إلى المال والمجتمع. قيامك لله في الظلام لا يكتمل أثره إذا أصبحت قاسياً على المحتاج في الضوء. والروحانية التي لا تجعل اليد أرحم بالناس تظل ناقصة الأثر.

فالقرآن لا يريد إنساناً يذوب في مشاعره الدينية حتى ينسى حقوق الآخرين؛ الصلاة تصلح جهة القلب، والزكاة تصلح جهة المال، والقراءة تمد العقل والروح، وكلها تصنع عبداً متوازناً لا يحبس الدين في جانب واحد من حياته.

ثم يقول تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

سبحان من يملك كل شيء ثم يعبر لعبده بهذا التعبير الكريم، فيسمي ما ينفقه العبد في وجوه الخير قرضاً لله، مع أن المال أصلاً مال الله، والعبد نفسه عبد الله، والقدرة على الإنفاق من الله. لكنه سبحانه يرفع قيمة العمل في وجدان عبده حتى يشعر أن ما يخرج من يده لا يذهب إلى فراغ، بل يدخل في معاملة مع الله.

و«القرض الحسن» ليس ما خرج من اليد فحسب، بل ما حسن قصده وطريقه؛ مالٌ خرج لله لا لشراء مكانة في أعين الناس، ولا لإذلال المحتاج، ولا لتسجيل جميلٍ عليه يُسترد لاحقاً في صورة ولاء. فالإنفاق الذي يقرض به الإنسان ربه ينبغي أن يكون نقياً من أوساخ السيطرة؛ لأن الله غني عن المال، وإنما يريد القلب الذي تحرر من عبودية المال.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ويا للمفارقة: الإنسان يخاف أن ينقص ماله حين ينفق، والقرآن يقول له ضمناً إن ما خرج لله هو الذي لم يضع. أما ما بقي في يدك فقد يفارقك أو تفارقه، بينما ما قدمته انتقل من منطقة الفناء إلى منطقة البقاء.

ولهذا يأتي البيان بعدها مباشرة: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

هذه الآية تعيد تعريف الملكية.

ما تملكه حقاً ليس كل ما تجمع، بل ما تقدمه.

المال الذي أنفقته لله هو في الحقيقة الذي ادخرته لنفسك.

والوقت الذي صرفته في طاعة الله لم يذهب من عمرك، بل دخل الجزء الأبقى من عمرك.

والكلمة الطيبة التي نسيتها قد تجدها.

والدمعة التي لم يرها أحد قد تجدها.

والصبر الذي ابتلعت كي لا تظلم أحداً قد تجده.

والعفو الذي قاومت به رغبة الانتقام قد تجده.

والصدقة التي خرجت في سرٍّ ثم محتها من ذاكرتك قد تجدها.

﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

يا لها من عبارة تصلح أن تعيد بناء علاقتنا بكل خير.

الخير لا يضيع إذا لم يصفق له أحد.

ولا ينقص لأنه لم يعرف به الناس.

ولا يصبح عدماً لأن صاحبه نسيه.

إنه محفوظ في موضع لا تدخل إليه يد الفناء: عند الله.

وأحياناً يتعب الإنسان لأن عمله الجميل لم يُقدّر، أو لأن معرفته بجد، أو لأن من أحسن إليهم قابله بالنسيان، فيأتي القرآن ليحرره من اقتصاد البشر كله: لم تكن المعاملة النهائية معهم أصلاً؛ ما قدمت من خير ستجده عند الله.

وإذا وجدت خيرك عند الله، فإذا يضرك أن ينساه الناس؟

بل يقول سبحانه: ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً﴾.

أي ستجده هناك خيراً مما أبقيت، وأعظم ثواباً. وهنا يظهر الربح الحقيقي الذي لا تملكه حسابات الدنيا؛ فالشيء القليل الذي تخرجه الله قد يعود عليك في الآخرة عظيماً، لأن الذي يَنِيهِ لك ليس قانون السوق، بل فضل الكريم سبحانه.

ومن هنا يستطيع المؤمن أن يعيش في الدنيا دون أن يكون عبداً لفكرة الخسارة. بعض الأشياء التي تسميها الدنيا خسائر هي أرباح مؤجلة: وقتُ صرفته مع محتاج، مالٌ قدمته، راحةٌ تركتها لطاعة، لذةٌ منعت نفسك منها لله، خصومةٌ كان يمكنك أن تنتصر فيها لنفسك فتركت بعض حقك طلباً لما عند الله. كل هذه تبدو ناقصةً في الحساب الأرضي، لكنها تدخل ميزاناً آخر.

سُورَةُ الْمَزْمِلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ثم، بعد القيام والقراءة والصلاة والزكاة والإنفاق والخير كله، تأتي كلمة قد يفاجأ بها من يظن أن العبادة الكثيرة تمنح صاحبها مقام الاكتفاء عن التوبة:

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾.

سبحان الله.

بعد كل هذه الأعمال: استغفروا.

كأن السورة تحرس قلب العابد من أخطر عدو بعد المعصية: الإعجاب بالطاعة.

قمت الليل؟ استغفر.

قرأت القرآن؟ استغفر.

صليت؟ استغفر.

أنفقت؟ استغفر.

قدمت الخير؟ استغفر.

لأنك مهما عملت لا تؤدي حق الله كما ينبغي، ولأن العمل نفسه قد تدخله آفات لا تراها، ولأن العبد يظل عبداً فقيراً لا صاحب رصيدٍ يطالب به ربه. الاستغفار بعد الطاعة يحفظ التوحيد؛ إذ يقول القلب من خلاله: يا رب، ما عبدتك كما يليق بجلالك، وما أخلصت كما ينبغي، وما سلم عملي من النقص، وأنا بعد كل ما صنعت محتاج إلى مغفرتك لا إلى عملي وحده.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وهذه نهاية تربي القلب تربية عجيبة؛ إذ قد يظن الإنسان أن الاستغفار شأن المذنبين فقط، بينما القرآن يضعه بعد سلسلة من الطاعات. فالذنب يحتاج استغفاراً، والطاعة تحتاج استغفاراً من نقصها، والعمر كله يحتاج أن يختتم بالافتقار.

ولعل من أجهل ما يصنعه الاستغفار أنه يمنع الطاعة من أن تتحول إلى جدار بين العبد والناس؛ فالذي يرى نقصه بعد عبادته يصعب عليه أن يحتقر غيره. أما الذي يرى عبادته ولا يرى عيوبها فقد يصبح قيامه نفسه مادةً للكبر، فيتحول الدواء إلى داء.

ثم تختم السورة باسمين لو وضعناهما أمام السورة كلها لبدت لنا الرحلة كأنها كانت تتجه إليهما من أول لحظة:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لم تنته السورة بـ«شديد العقاب»، مع أنها عرضت الأنكال والجحيم والعذاب الأليم.

ولم تنته بـ«العزیز الجبار»، مع أنها قصّت أخذ فرعون.

بل انتهت بالمغفرة والرحمة.

وهذه ليست مصادفةً في البناء.

السورة بدأت بالتكليف وانتهت بالرحمة.

بدأت بـ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ وانتهت بـ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

كَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ مَعَهُ هَذَا الطَّرِيقَ الطَّوِيلَ: لَا تَجْعَلِ الْعِبَادَةَ نَفْسَهَا تَحْجِبُكَ
عَنْ مَعْرِفَةِ مَنْ تَعْبُدُهُ؛ أَنَا الَّذِي أَمَرْتُكَ بِالْقِيَامِ، وَأَنَا الَّذِي أَعْلَمُ ضَعْفَكَ، وَأَنَا الَّذِي خَفَفْتُ،
وَأَنَا الَّذِي قَبَلْتُ مَا تَيْسِرُ، وَأَنَا الَّذِي دَعَوْتُكَ إِلَى الْاسْتِغْفَارِ، وَأَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

وَهُنَا يَظْهَرُ وَاحِدٌ مِنْ أَعْظَمِ أَسْرَارِ سُورَةِ الْمَزْمَلِ: أَنَّهَا لَا تَبْنِي الْإِنْسَانَ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ، وَلَا
بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ، وَلَا بِالتَّكْلِيفِ الْمَجْرَدِ، وَلَا بِالرَّاحَةِ الْمَجْرَدَةِ؛ بَلْ تَمْزِجُ الْعِزْمَ بِالرَّحْمَةِ حَتَّى يَنْشَأَ
قَلْبٌ جَادٌ دُونَ قَسْوَةٍ، خَائِفٌ دُونَ يَأْسٍ، رَاجٍ دُونَ تَسَيِّبٍ، عَامِلٌ دُونَ إِعْجَابٍ.

إِنَّ الرَّحْمَةَ لَيْسَتْ فِي أَنْ لَا يَقَالَ لَكَ: قُمْ.

بَلْ فِي أَنْ يَقَالَ لَكَ: قُمْ، ثُمَّ إِذَا ضَعَفْتَ قِيلَ لَكَ: مَا تَيْسِرُ.

وَالرَّحْمَةُ لَيْسَتْ فِي أَنْ لَا تَحْمِلَ شَيْئًا.

بَلْ فِي أَنْ يَهَيِّئَ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَحْمَلَكَ، ثُمَّ يَعِينِكَ أَثْنَاءَ الْحَمْلِ، ثُمَّ يَعْفُو عَنْ تَقْصِيرِكَ بَعْدَهُ.

وَالرَّحْمَةُ لَيْسَتْ فِي أَنْ تُلْغَى التَّكْلِيفُ.

بَلْ فِي أَنْ يَظَلَّ بَابُ اللَّهِ مَفْتُوحًا حَتَّى وَأَنْتَ لَا تُوَدِّيْهَا كَمَا كُنْتَ تَتَنَّى.

بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ نَفْهَمُ السُّورَةَ كُلَّهَا فَهَمًّا أَعْمَقَ. إِنَّهَا سُورَةٌ لَيْسَتْ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ فَقَطْ، بَلْ
فِي فَقْهِ الطَّاقَةِ الرُّوحِيَّةِ؛ كَيْفَ يُصْنَعُ الْإِنْسَانُ، وَكَيْفَ يُعْطَى مِنَ التَّكْلِيفِ مَا يَرْفَعُهُ،
وَكَيفَ يُعَلِّمُ أَلَا يَنْهَارُ إِذَا تَغَيَّرَتْ طَاقَتُهُ، وَكَيْفَ يَبْقَى الْقُرْآنُ مَعَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، وَكَيْفَ لَا
يُحَوَّلُ الْعِبَادَةُ إِلَى مَنْافَسَةٍ قَاسِيَةٍ مَعَ نَفْسِهِ وَالنَّاسِ.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وفيا فقهٌ عظيمٌ للدوام: لا تجعل طاعتك مشروعاً موسميّاً يشتعل ثم ينطفئ، بل اجعل لك منها ما تستطيع أن تحمله في مواسم قوتك وضعفك. إن العمل الذي يلازمك صغيراً خيراً لقلبك من اندفاعِ خِزْمَةٍ تجعلك بعد سقوطها تشعر أن كل شيء انتهى.

وفيا فقهٌ للحياة: المرض لا يطردك من الطريق، والعمل لا يطردك من الطريق، والسفر لا يطردك من الطريق، والمسؤوليات لا تطردك من الطريق. تُغيّر هيئة السير، لكن القبلّة واحدة.

وفيا فقهٌ للقرآن: ليس المطلوب أن يتحول المصحف إلى عبء إضافي في قائمة الواجبات، بل أن يبقى غذاءً مرافقاً لك؛ فإذا اتسع الوقت فزد، وإذا ضاق نخذ ما تيسر، ولكن لا تجعل قلبك يعتاد الغياب الطويل عنه.

وفيا فقهٌ للهال: ما تحتفظ به لنفسك قد يذهب، وما تقدمه لله هو الذي تجده.

وفيا فقهٌ للطاعة: مهما عملت، فاختم بالاستغفار.

وفيا فقهٌ لمعرفة الله: وراء الأوامر ربٌّ يعلم، ويقدر، ويخفف، ويغفر، ويرحم.

وحين نجمع مطلع السورة إلى ختامها تبدولنا رحلة الإنسان كلها في صورتين:

في أولها عبدٌ متزملٌ يُنادى: قم.

وفي آخرها عبدٌ سائرٌ يُقال له: ما تيسر.

وبينهما منهج كامل في صناعة القلب.

سورة المزمل | حين يهيئ الله قلب الرسالة

القيام يخرججه من أسر الراحة.

والترتيل يعيد بناء وعيه.

والقول الثقيل يمنحه معنى المسؤولية.

وناشئة الليل تمنحه العمق.

وسبح النهار يعلمه أن الإيمان لا يعزل عن الحياة.

والذكر يحفظ مركزه.

والتبذل يحلله من التعلق.

والتوحيد يصحح وجهته.

والتوكل يريحه من حمل النتائج.

والصبر يمنعه من الانكسار تحت أذى الناس.

والهجر الجميل يحفظ أخلاقه في الخصومة.

وذكر الآخرة يحفظ موازينه من خداع اللحظة.

وقصة فرعون تمنعه من الاعتزاز بالقوة.

والتذكرة تفتح له باب الرجوع.

والتيسير يمنعه من اليأس من نفسه.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

والصلاة والزكاة والإنفاق تربط ليله بحياة الناس.

والاستغفار يحفظه من عبادة عمله.

والمغفرة والرحمة تفتحان أمامه آخر الأبواب وأوسعها.

وهكذا لا تعود كلمة ﴿الْمَزْمَلِ﴾ في نهاية الرحلة مجرد وصفٍ لحالٍ عابرة في مطلع السورة، بل تصبح رمزاً للنقطة التي يبدأ منها التحول. كل إنسان له «تزمّل» ما؛ شيء يلتفت حوله ليأمن، راحة لا يريد مفارقتها، عذرٌ يحتجّ فيه، خوفٌ يمنعه من النهوض، عادةٌ تمنحه دفئاً قصيراً وتحرمه أفقاً أكبر. ثم يسمع في القرآن ذلك النداء القديم المتجدد:

﴿قُمْ﴾.

لا لأن الله يريد أن يحرمك الدفء، بل لأنه يريد لك حياةً أكبر من الثوب الذي احتमित به.

قم إلى قرآن يعيد ترتيبك.

قم إلى ربك قبل أن تبتلعك حاجات الخلق.

قم لتأخذ من الليل ما يعينك على النهار.

قم حتى تعرف أن القوة ليست ألا تتعب، بل أن تعرف أين تعود حين نتعب.

ثم إذا مضيت، ومرضت، وسافرت، وانشغلت، وضعفت، فلا تقل: انتهيت.

سيأتيك من آخر السورة صوت الرحمة:

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾.

ابقَ في الطريق.

ولو بخطوة.

ابقَ مع القرآن.

ولو بالقليل.

ابقَ مستغفراً.

ولو بعد أعظم طاعاتك.

ولا تجعل ضعفك يقنعك أن ربك أغلق الباب؛ فإن آخر كلمتين في السورة ليستا وصفاً لضعفك، بل وصفاً لربك:

﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهنا تتم سورة المزل، وقد بدأت بعبدٍ يلتف بثوبه، وانتهت بعبدٍ يلتف برحمة الله.

وما أبعد المسافة بين الغطاءين.

الخلاصة

من ثوب المزل إلى ستر الرحمة

تنتهي سورة المزل، ولكن الذي يصغي إليها حقاً لا يخرج منها كما دخل؛ لأن هذه السورة القصيرة في عدد آياتها ليست قصيرة في المسافة التي تقطعها داخل الإنسان، فهي تبدأ به في

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

مشهد شديد الإنسانية: رجلٌ مزمَلٌ بثوبه، ثم لا تلبث أن تقوده خطوةً خطوةً من دفء الغطاء إلى مشقة القيام، ومن سكون الليل إلى ثقل الوحي، ومن خلوة المحراب إلى ازدحام النهار، ومن أذى الكلمات إلى جمال الصبر، ومن صخب المكذِبين إلى سَكينة التوكل، ومن غرور الأرض إلى رَجفة القيامة، ثم تعود به في نهايتها إلى رحمته الأولى، فيسمع بعد كل ما حمل: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، ثم تغلق السورة على اسمين لا يستطيع القلب أن يقرأهما بعد هذه الرحلة كما كان يقرأهما من قبل: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد يبدو لأول وهلة أن موضوع السورة هو قيام الليل، ولكن قيام الليل ليس إلا الباب الذي تدخل منه إلى موضوع أوسع: كيف يُعِدُّ الله إنساناً ليحمل الحق دون أن يسحقه ثقل الحق، ويعيش بين الناس دون أن يبتلعه الناس، ويواجه الباطل دون أن يتخلق بأخلاقه، ويعمل في الدنيا دون أن تصبح الدنيا ربَّ قلبه؟ وهذا هو السر الذي يجعل سورة المزمَل من أعظم سور التريية؛ فهي لا تعطيك خطاباً عن البطولة بعد وقوعها، وإنما تأخذك إلى المختبر الخفي الذي تُصنع فيه البطولة قبل أن يراها أحد.

إن أول ما تعلنه منها أن الرسائل الكبيرة لا تبدأ دائماً من المنابر، بل قد تبدأ من لحظة لا يشهدها إلا الله. ثم بناء يحدث في الداخل قبل أن يحدث أي بناء في الخارج، وثمة ليلٌ وراء كل نهار ممتلئ بالثبات، وثمة عبادة سرية وراء مواقف علنية يراها الناس فيحسبون أن أصحابها خلقوا أقوىاء. لكن القرآن يكشف لك السر: لقد وقفوا طويلاً أمام الله قبل أن يقفوا أمام الخلق.

وحين قال الله: ﴿قُمْ اللَّيْلُ﴾، لم يكن يدعو إلى فرار من الحياة، بل إلى استعداد لها؛ لأن السورة نفسها ستقول بعد ذلك: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾. وهكذا صححت المزمّل واحدةً من أخطر الثنائيات الوهمية في حياة الإنسان: ليست العبادة ضد العمل، ولا الخلوة ضد الحركة، ولا الروح ضد العالم، وإنما كل واحد منها يحتاج الآخر ليعتدل. الليل الذي لا يخرج صاحبه إلى النهار قد يتحول إلى انعزال، والنهار الذي لا يرجع بصاحبه إلى الليل قد يتحول إلى استنزاف. أما الإنسان القرآني فيأخذ من خلوته قوةً لعمله، ومن عمله معنىً لعبادته، ويظل ذاهباً وعائداً بين المحراب والحياة دون أن ينقطع عن الله في أي منهما.

ثم جاءت العبارة التي يمكن أن نجعلها مفتاح السورة كله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. لقد تعلمنا أن الوحي ليس زينةً لغوية ولا راحةً شعورية مجردة، بل أمانة تغير حاملها، ولذلك يحتاج إلى قلب أُعدّ له. وكلما كان ما تريد حمله عظيمًا، احتاج باطنك إلى عمق يناسبه؛ فلا يستطيع قلبٌ يتقاذفه مديح الناس وذمهم أن يحمل كلمةً ثقيلة، ولا نفسٌ تستعبد لها الراحة أن تثبت في طريقٍ طويل، ولا روحٌ خالية من الخلوة تستطيع أن تواجه ضجيج العالم دون أن يصبح الضجيج جزءاً منها.

وعلمتنا السورة أن الليل ليس فراغاً زمنياً، بل فضاءً لاسترداد الإنسان من تشتته. إن المرء في النهار يُبعثر على الأشياء: جزء منه للعمل، وجزء للناس، وجزء للمخاوف، وجزء للمستقبل، وجزء للصور التي يريد أن يحافظ عليها أمام الآخرين؛ ثم يأتي الليل فيرد هذه الأجزاء إلى مركز واحد. ولهذا كانت ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أشد وطئاً وأقوم قيلًا، ففيها يصبح القول أثقل في القلب، وتصبح النفس أقدر على أن تسمع نفسها وهي تسمع كلام ربها.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

ثم حملتنا السورة إلى سرٍّ آخر: أنك لا تحتاج فقط إلى وقتٍ مع الله، بل إلى قلبٍ متبتلٍ إليه. فقد يعيش الإنسان بين الناس بجسده بينما قلبه مستقل لا يعبد أحداً منهم، وقد يعتزلهم بجسده بينما يعيش أسيراً لنظراتهم وتوقعاتهم. ولذلك لم تكن القضية عزلةً ظاهرية، وإنما ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ أن تنقطع جهة العبودية إلى الله، وأن تنزل الأشياء كلها من مقام السيادة إلى مقام الأسباب، وأن يبقى لله في داخلك موضعٌ لا ينازعه عليه أحد.

ومن التبتل جاء التوكل: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾. وكأن السورة تريد أن تحرر الإنسان من أحد أثقل الأوهام: وهم أنه مسؤول عن النتائج كما هو مسؤول عن العمل. لقد أمره الله أن يقوم، ويرتل، ويذكر، ويتبتل، ثم قال له: اتخذني وكيلًا. افعل ما عليك، ولا تنوهم أنك ربّ العواقب. وهذه إحدى أعظم صور الرحمة بالإنسان؛ لأن القلب إذا حمل واجبه وترك لله ما لله استطاع أن يعمل دون أن يتحول العمل إلى قلقٍ دائم.

ثم جاء الناس، وجاءت كلماتهم: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. وفي هذا ترتيب لا ينبغي أن يمر بنا سريعاً؛ فالسورة لم تدخل النبي ﷺ في مواجهة أذى الناس قبل أن تملأ قلبه بربه. وكأن من الخطأ أن ندفع الإنسان إلى الخصومة قبل أن يتعلم كيف يعود إلى مركزه. فالكلمات تؤلم، ولكن القلب المتصل بالله لا يسمح لها أن تتحد وجهته. ومن هنا جاء أعلى من الصبر نفسه: ﴿وَأَجْرُهُمْ فَهْرًا جَمِيلًا﴾؛ أن تنتصر لأخلاقك قبل أن تنتصر على خصمك، وأن تعرف أن بعض المعارك يكون الانسحاب منها حفظاً للرسالة لا عجزاً عن الرد، وأن لا تمنح المسيء شرف إعادة تشكيلك على صورته.

وما أروع أن القرآن لم يقل له فقط: اصبر، بل قال بعد ذلك: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾. دعهم لي. وكأن التوكل الذي تعلمه في المحراب صار الآن سلوكاً في الخصومة. ليست عليك نهاية كل قصة، ولا عقوبة كل ظالم، ولا هداية كل مكذب. هناك حدود لعبوديتك، ومعرفة هذه الحدود عبادة؛ لأن من تجاوزها حمل ما لم يكلفه الله به، ثم سمي انهباره غيرةً على الحق.

ثم فتحت السورة نافذة الآخرة حتى لا يصبح حاضر الإنسان هو مقياس الحقيقة كله. رأينا الأنكال والجحيم، والطعام ذا الغصة، والأرض ترجف، والجبال تصير كثيباً مهيباً، والسماء تنفطر. وكل هذه المشاهد كانت تعيد للإنسان ميزانه: ما تراه ثابتاً ليس ثابتاً، وما تراه قوياً ليس خالداً، وما تراه نهايةً قد يكون مجرد صفحة في قصة أطول. وإذا استقرت الآخرة في القلب، خفت سطوة اللحظة؛ فليس كل من انتصر اليوم منتصراً، ولا كل من خسر اليوم خاسراً.

وجاء فرعون شاهداً من التاريخ على هذه الحقيقة؛ طاغيةً بدت له قوته كأنها قادرة على تجاوز حدود العبودية، ثم اختصر القرآن كل مملكته في كلمة: ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾. وهذا من أقسى ما يفعله الوحي بالغرور؛ إذ يحوّل الذي كان يأخذ الناس إلى مأخوذ، والذي كان يهدد إلى من وقع عليه الوعيد، والذي ظن أن الأرض ملكه إلى عبيدٍ لم يستطع أن ينجو من رب الأرض.

لكن السورة، على الرغم من رهبة هذه الصور، لم تترك الإنسان في الخوف؛ إذ قالت: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾. وهذه الآية وحدها تكشف روح السورة كلها؛

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

فالإنذار ليس جداراً، بل علامة طريق. والقيامة لم تذكر لتقال لك: انتهى كل شيء، بل لتقال لك: الطريق ما يزال أمامك الآن. ما دام القلب ينبض، فهناك سبيل. وما دام الوقت لم يغلق، فهناك عودة. وما دام الله يناديك، فالتاريخ السابق لا يمنع الخطوة التالية.

ثم جاءت الآية العشرون، الطويلة الرحيمة، فوضعت يدها على ضعف الإنسان كله: المرض، والسفر، وطلب الرزق، والقتال، واختلاف الطاقة، وعجز الناس عن إحصاء المقدار الأول على الدوام. وهنا تجلّى أحد أعظم أوجه الجمال في السورة: أن الله الذي أمرك في البداية بالعزيمة هو نفسه الذي خفف عنك في النهاية. لم يكن الأمر الأول قسوة، ولم يكن التخفيف الأخير تنازلاً؛ كلاهما تربية. ففي مرحلة تحتاج النفس أن تسمع: قم، وفي مرحلة تحتاج أن تسمع: ما تيسر.

وهكذا علمتنا سورة المزمّل أن الطريق إلى الله لا يقوم على مثالية تكسر الإنسان، ولا على تيسير يفرغه من المجاهدة، بل على ميزانٍ رباني دقيق: شدُّ يوقظ، ورحمةٌ تحفظ، تكليفٌ يرفع، وتخفيفٌ يمنع الانقطاع.

ولعل من أعمق كلمات السورة لنا في عصرنا هذا: لا تجعل عجزك عن الكثير سبباً في ترك القليل.

إن لم تستطع ساعةً، فدقائق.

إن لم تستطع حزباً، فصفحات.

إن لم يكن لك من الليل إلا ركعتان، فلا تحقر الركعتين.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

إن كنت في تعبٍ أو سفرٍ أو ظرفٍ أثقل قلبك، فلا تجعل الألم يقطع الحبل كله.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ ليست خطاباً للمتكاسلين ليبقوا في كسلهم، بل رحمة بالسائرين حتى لا يخرجهم ضعفهم من الطريق.

ثم ختمت السورة بالاستغفار بعد الأعمال الصالحة؛ وكأن أعظم ما تخشاه على العابد بعد أن يقوم ويقرأ ويصلي وينفق أن يتسلل إليه الشعور بأنه أصبح صاحب فضلٍ على ربه. فجاءت: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ﴾، لتعيده إلى مقامه الحقيقي. كلما صعدت بك الطاعة درجةً، انخفض برأسك أكثر بين يدي الله. ما عبدناه حق عبادته، وما شكرناه حق شكره، وما خلصت أعمالنا من النقص؛ فإذا كانت المعصية تحتاج إلى استغفار، فإن الطاعة كذلك تحتاج إلى تواضع واستغفار.

ثم يكون آخر ما يسمعه القلب:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهنا لا أستطيع أن أرى خاتمة السورة إلا كعودة إلى صورة البداية، ولكن مع تحول عظيم.

في البداية كان النبي ﷺ متزماً بثوبه.

وفي النهاية صار العبد كله تحت معنى المغفرة والرحمة.

كأن السورة تنقل الإنسان من غطاءٍ يطلبه الجسد إلى سترٍ يطلبه الروح؛ من ثوبٍ يدفعه ليلةً إلى رحمةٍ يرجوها في الدنيا والآخرة.

سورة المزمل | حين يهيئ الله قلب الرسالة

وإذا أردنا أن نلخص رحلة المزمل في كلمة واحدة، فقد تكون: الإعداد.

إعداد القلب للقول.

إعداد الليل للنهار.

إعداد العبد للأذى.

إعداد الأخلاق للنصومة.

إعداد الوعي للآخرة.

إعداد الإنسان ليستمر حتى عندما تضعف طاقته.

لكن هذا الإعداد كله ينتهي بحقيقة أعظم: أنك مهما استعددت، فنجاتك ليست بقدرتك وحدها، وإنما برحمة الله.

ولذلك فإن أكبر خطأ يمكن أن نخرج به من سورة المزمل أن نحولها إلى جدولٍ ثقیل من التكاليفات ثم ننسى رب المزمل.

هي لم تأت فقط لتقول لك: كم تقوم؟

بل لتسألك: لمن تقوم؟

ولم تأت فقط لتسأل: كم تقرأ؟

بل: ماذا يصنع القرآن فيك؟

ولم تأت فقط لتسألك: هل تصبر؟

بل: هل بقي صبرك جميلاً دون أن يفسد قلبك؟

ولم تأت فقط لتقول: توكل.

بل لتسألك: هل سلّمت لله ما ليس من وظيفتك أن تحمله؟

ولم تأت فقط لتذكر كرك بالموت والقيامة.

بل لتسألك: هل جعلت هذا العلم يعيد ترتيب يومك؟

ولم تأت فقط لتقول لك: قم.

بل لتقول لك كذلك حين نتعب: لا تخرج من الطريق، خذ ما تيسر وامض.

وكلما عاد الإنسان إلى هذه السورة وهو يحمل ثقلاً في حياته، ربما اكتشف أن أثقاله تنقسم إلى نوعين: أشياء كلفه الله أن يحملها، وأشياء حملها هو على نفسه ولم يأمره الله بها. أما الأولى، فالسورة تعلمه أن يستعد لها بالقيام والقرآن والذكر والتبتل. وأما الثانية، فتعلمه أن يضعها عند قوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

ليس مطلوباً منك أن تحمل غداً.

ولا أن تصلح العالم وحداً.

ولا أن تمنع الناس من سوء فهمك.

ولا أن ترجح كل مواجهة.

ولا أن تعرف سر كل قدر.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وَلَا أَنْ تَبْلُغَ الْكَمَالَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

الْمَطْلُوبُ أَنْ يَكُونَ لَكَ رَبٌّ تَعُودُ إِلَيْهِ.

وَقُرْآنٌ لَا تَهْجُرُهُ.

وَقَلْبٌ يَعْرِفُ قَبْلَتَهُ.

وخطوةٌ لَا تَنْقُطِعُ.

وَإِذَا ضَعُفْتَ، اسْتَغْفَرْتَ.

وَإِذَا قَصُرْتَ، عَدْتَ.

وَإِذَا خَفْتَ، تَوَكَّلْتَ.

وَإِذَا آذَاكَ النَّاسُ، صَبَرْتَ.

وَإِذَا صَارَ الْاِشْتِبَاكُ يَفْسِدُكَ، هَجَرْتَ هَجْرًا جَمِيلًا.

وَإِذَا أَغْرَتْكَ قُوَّةُ الْأَرْضِ، تَذَكَّرْتَ فِرْعَوْنَ.

وَإِذَا اسْتَبَدَّ بِكَ خَوْفُ الدُّنْيَا، تَذَكَّرْتَ الْيَوْمَ الَّذِي تَرْجَفُ فِيهِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ.

وَإِذَا قَالَ لَكَ الْيَأْسُ إِنَّ الطَّرِيقَ انْقَطَعَ، سَمِعْتَ مِنْ بَعِيدٍ:

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

ثم تمضي.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وربما تمضي ببطء..

لكن البطء إلى الله خيرٌ من سرعةٍ في غير طريقه.

وربما يقل وردك.

لكن القليل الذي يحفظ صلتك بالله أعظم من كثيرٍ يورثك الانقطاع.

وربما لا يعرف أحد مقدار معركتك في الداخل.

لكن السورة علمتك من أول آيتها الأخيرة:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾.

وهذه تكفي.

يعلم الليالي التي لم يرها أحد.

ويعلم ثقل الخطوات.

ويعلم العجز الذي أخففته عن الناس.

ويعلم صدق المحاولة حين لم تبلغ ما تمنيت.

ويعلم الخير الذي قدمت ثم نسيت.

ويعلم الذنب الذي بكيت منه.

ويعلم أنك لا تزال تحاول الوصول إليه.

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

فإذا كان يعلم، فلماذا يرهقك ألا يفهمك الجميع؟

وإذا كان يحفظ الخير، فلماذا يحزنك أن ينساه الناس؟

وإذا كان هو الوكيل، فلماذا تريد أن تضمن كل شيء؟

وإذا كان غفوراً رحيماً، فلماذا تجعل سقوطك مرةً نهاية الطريق؟

هكذا تصبح سورة المزمّل في آخر التأمل ليست سورة الليل وحده، بل سورة الإنسان الذي

يتعلم كيف يعيش بقلبٍ موصول بالله في عالمٍ يستنزف القلوب.

إنها تقول لنا من أولها إلى آخرها:

اجعل لك في الخفاء ما يحفظك في العلن.

واجعل لك من القرآن ما يزن كلام الناس.

واجعل لك من ذكر الله ما يعيدك حين يبعثك النهار.

واجعل لك من التبتّل ما يمنع المخلوقات من احتلال قلبك.

واجعل لك من الآخرة ما يصغر طغيان اللحظة.

واجعل لك من الرحمة فهماً لا يحول ضعفك إلى يأس.

ثم لا تنكئ على شيء من ذلك كله إلا على الله.

لقد بدأت السورة بقولٍ كأنه يوقظ الجسد:

﴿قُمْ﴾

سُورَةُ الْمَزْمَلِ | حِينَ يَهَيِّئُ اللَّهُ قَلْبَ الرِّسَالَةِ

وانتهت باسمين كأنهما يسندان القلب:

﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وبين الیقظة والرحمة تمضي رحلة المؤمن كلها.

يقوم لأنه عبده.

ويضعف لأنه بشر.

ويعود لأن له رباً.

ويواصل لأن الباب لم يُغلق.

فطوبى لقلبٍ كان له من سورة المزمّل نصيب، لا في ذاكرته وحدها، بل في ليله، وصبره،

وخلوته، واشغاله، وتوكله، وموازنته بين العزم والرحمة.

وطوبى لمن أدرك أن أعمق تحولات حياته قد تبدأ في ساعة لا يراه فيها أحد.

حين يزيح عنه الغطاء.

ويقوم.

ويفتح القرآن.

ويبدأ الطريق إلى الله.